القسم الأول

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

سُنَّة كَونيَّة

obeikandl.com

obeikandl.com

المدخل

١. التعاون والتساند

يرى النورسي رحمه الله –من خلال تأملاته العميقة ونظرته الشمولية الجامعة في الحياة والكون– قانوناً عاماً ينظم مسار الحياة نحو مقاصدها العليا وغاياتها الأساس، ويكتشف ناموساً عظيماً يتماسك به الكون ويقوم عليه الوجود... وهذا "القانون والناموس" إنما هو "التعاون والتساند" بين عناصر الوجود وكائناته، ويتم بموجبه حوار ودي صادق بين الإنسان والكون والحياة..

يقول النورسي بهذا الصدد:

"اعلم! إن مما يدل على أن دستور الحياة هو التعاون دون الجدال؛ كما توهمته الفلسفة الضالة المضلة، عدم مقاومة التراب الصلب ولا الحجر الصلد، لسيران لطائف رقائق عروق النباتات اللينة اللطيفة، بل يشق الحجر قلبه القاسي بتماس حرير أصابع بنات النبات، ويفتح التراب صدره المصمت لسريان رائد النباتات.

نعم، تجاوب أعضاء الكائنات بشمسها وقمرها لمنفعة الحيوانات، وتسارع النباتات لإمداد أرزاق الحيوانات، وتسابق مواد الأغذية لترزيق الثمرات، وتزين الثمرات لجلب أنظار المرتزقات، وتعاون الذرات في

الإمداد لغذاء حجيرات البدن؛ دليل قاطع ساطع على أن الدستور العام هو التعاون وما الجدال إلا دستور جزئي بين قسم من الحيوانات الظالمة''.[1]

ومن خلال هذا الحوار والتواصل الحميمي الدائم بمضي الثلاثة "الإنسان والكون والحياة" في وحدة واحدة ويدلفون إلى طريق العبودية الخالصة للّه تعالى، ويمهدون للآتين من البشر السبيل لمعرفته ومحبته جل وعلا!

فالعالم إذن بأرضه وسمائه وكونه، ونباته وحيوانه، وإنسه وجانه، وحدة واحدة، وكيان موحد، يربط بين أجزائه روح تعاوني محكم، وتشد مفاصله إرادة الارتقاء بالإنسان -خليفة الله في أرضه- إلى مقام التقوى والإحسان.

٢. "كل شيء" في خدمة شيء و"الشيء" في خدمة كل شيء

فالشيء الواحد مرتبط بـ"الكل" أخذا وعطاء وهذا "الكل" نفسه قد يكون مكرسا لخدمة هذا "الواحد" أيضا، وقد ينسل "شيء" كذرة هواء مثلا أو قطرة ماء في جسم كائن حي، فتساهم -الذرة أو القطرة- في بناء الملايين من حجيرات هذا الجسم، وكثيرا ما تجتمع أشياء كثيرة -كالماء والتراب والهواء والشمس- لتبني ثمرة في شجرة..

فاستمع إلى النورسي مشيرا إلى هذه الحقيقة الحياتية بشكل غاية في البساطة والوضوح حيث يقول:

''انظر إلى الحياة كيف يصير فيها شيء كلّ شيءٍ. وكذا يصير كلُّ شيء شيئاً.

نعم! يصير الماء المشروب -بإذن الله- مالا يعد من أعضاء وجهازاتٍ

(١) المثنوي العربي النوري للنورسي ص ٣٤٩-٣٥٠.

حيوانية، فصار شـــيء بأمر الله كلّ شيء. وكذا يصيرُ جميعُ الأطعمة المختلفة الأجناس -بإذن الله- جســـماً خاصاً وجلداً مخصوصاً وجهازاً بسيطاً، فيصير كلُ شيء شيئاً لأمر الله. فمَن كان له عقل وشعور قلب يفهم: إنّ جعل شيء كلّ شـــيء وجعل كلّ شـــيء شيئاً سكةٌ خاصة بصانع كل شيء وخالق كلّ شيء جلّ جلاله''.[1]

فعمل "الواحد" ضروري "للكل" وعمل "الكل" ضروري للواحد.. فالنملـــة والفيل، والزهرة والفراشة، والشمس والقمر والنجوم، يرتبط كل واحد منـــها بالكل ارتباطا وثيقا، ويرتبط "الكل" بالإنسان رغم ما يبدو أحيانا للوهلة الأولى من عدم وجود هذا الارتباط.

٣. مولد إنسان

فمولد "إنسان جديد" ليس ميلاد "رقم جديد" يزيد واحدا إلى رقم الملايين من البشر الموجودين على الكرة الأرضية... بل هو حدث مهم يـــتمخض عنـــه الكون والحياة، وهو لا يقل في أهميته وخطورته عن أي حدث كوني في عـــالم السماوات والأرض، وهو أيضاً على صلة وثيقة بما يحدث في هذين العالمين مـــن أحداث، وما يقع فيهما من وقائع...

لذلك سن الإسلام استقبال "المولود الجديد" بالتكبير والتهليل والتحميـــد، كأي حدث كوني آخر يثير الخوف أو السرور، ويُحْتَفَى بمقدمه احتفاء يليـــق - ليس بما هو كائن عليه يوم مولده- بل بما يمكن أن يكون عليه في مستقبل أيامه، وبما يؤمل أن يحتله من موقع في الحياة الإيمانية، والمجتمع البشري.

(١) المصدر نفسه ص ٤١.

٤. مولد محمد ﷺ

هذا في مولد "إنسان"، فكيف إذا كان هذا الإنسان نبيا..؟ وكيف إذا كان نبيا رسولا...؟ وكيف إذا كان محمدا ﷺ..؟

فمولده ﷺ مرتبط بالوجود والكون ارتباط الروح بالبدن، وارتباط العقل بالرأس، وارتباط الفكر بالوجدان...

فلنستمع إلى "النورسي" وهو يجلي لنا هذه الحقيقة حيث يقول:

''نعم، كما أن الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة. كذلك الحياة المحمدية -المادية والمعنوية- مترشحة من الحياة ومن روح الكون، فهي خلاصة خلاصتها والرسالة المحمدية مترشحة من حسّ الكون وشعورهِ وعقلِه، فهي أصفى خلاصته، بل إن حياة محمد ﷺ -المادية والمعنوية- بشهادة آثارها حياة لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. أجل.. أجل.. أجل.

فإذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جنّ جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلزل عقلها، وظلت بلا شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة''.[1]

(١) الكلمات للنورسي ص ١١٩.

فلا عجب إن كانت عيون الأحبار والرهبان والكهان، مشدودة إلى السماء ترصد أخبارها، وتستنبئ عن أحداثها..

عن حسان بن ثابت قال: (والله إني لغلام يفعة، ابن سبع سنين أو ثمان، اعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطمة "الحصن" بيثرب:

يا معشر يهود!

حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا له: ويلك ! مالك؟

قال: طلع الليلة نجم "أحمد" الذي ولد به).[1]

* * *

وفي مولده ﷺ ولد صنو الكون، وعدله في ميزان الوجود... به اتزن الكون، واعتدل مزاجه، وراق فكره، وهدأ حنينه، واطمأنت نفسه، ولسان حاله يقول:

محمد ﷺ صنوي، وشقيق روحي، وحبة فؤادي... من أنا من غير محمد..؟!

أنا طلسم مكنون محمد مفتاحه.. أنا الغموض والعماء بضوء محمد انكشف.. وبنور محمد أبين.. أنا كتاب ممسوح بيد محمد تتلألأ سطوره.. أنا التيه والضياع بمحمد أعرف نفسي ويعرفني العالم.. وبمحمد التقي ذاتي ويلتقيني العالم.. أنا اللامعنى الكبير.. ومحمد معناي الكبير..

٥. كون آخر

والقرآن الكريم المتنزل على قلب محمد ﷺ يقيم من آياته ومعانيه كونا آخر هو أعظم سعة، وأوسع شمولا من هذا الكون المشاهد المحدود الذي لا يبلغ في مداه وسعته "كون القرآن"..

(١) السيرة النبوية لابن هشام – الجزء الأول ص ١٦٨.

لأن "القرآن" كلام الله، والله تعالى لا يحده حد، ولا يحصره زمان أو مكان.. وهو أيضاً "معنى الوجود" و"المعنى" دائما أكبر وأعظم من "المبنى"، ولطافة "المعنى" أجمل وأسمى وأشمل من كثافته...

فأي قلب كبير كبير.. واسع واسع.. شامل شامل.. هو قلب محمد ﷺ، الذي يتنزل عليه "كون القرآن" فيحيط به ويستوعبه.. وأي ذات عظيمة هي ذاته التي تشع في سماء هذا الكون وتتألق في أرجائها!

فلا عجب إذا ما شكل القرآن الكريم ومحمد ﷺ كونا آخر، ورغم أن هذا الكون أوسع وأشمل وأعظم من الكون المادي الكثيف فان نواميسه وقوانينه لا تتعارض مطلقا مع نواميس الكون المادي وقوانينه، بل تتساوق معها وتتلاقى وتتوافق، حتى غدت "السنة النبوية الشريفة" -بسر هذا التوافق- ناموسا كونيا عاما يحفظ توازن الكونين المادي والمعنوي.

والآن فلننظر إلى النورسي كيف ينقلنا إلى آفاق هذه المعاني بما يضرب من أمثال، حيث يقول:

> ''اعلم! أنه بينما ترى العالم كتاباً كبيراً ترى نور محمد "عليه الصلاة والسلام" مداد قلم الكاتب.. وبينما ترى العالَم يلبس صورةَ الشجرة ترى نورَه "عليه الصلاة والسلام" نواتها أولاً، وثمرتها ثانياً.. وبينما ترى العالم يلبس جسم الحيوان[1] ترى نوره "عليه الصلاة والسلام" روحه.. وبينما ترى العالم تحوّل إنساناً كبيراً ترى نوره "عليه الصلاة والسلام" عقله.. وبينما ترى العالم حديقةً مزهرةً ترى نوره "عليه الصلاة والسلام" عندليبه..''.[2]

---

(١) أي: لو افترض العالم كائناً مجسماً ذا حياة ترى...

(٢) المثنوي العربي النوري ص ٢١٩.

ويقول أيضاً في المعنى نفسه:

''اعلم! إن القرآن كما يفسّر بعضه بعضاً، كذلك إن كتاب العالم يفسِّر بعضُ آياته بعضها. فكما أن العالم المـادي يحتاج احتيـاجاً حقيقياً إلى شمس تفيض منها عليه أنوارُ نعمته تعالى، كذلك العالم المعنوي يحتـاج أيضاً إلى شمس النبوة لفيضان أضواء رحمته تعالى. فنبوةُ احمد عليه الصلاة والسلام في الظهور والوضوح والقطعية بدرجة الشمس في وسط النهار، وهل يحتاج النهارُ إلى دليل؟''.[1]

وهي -أي السنة- تحرص على ألا تخرق عوائد الكون إلا في بعض الحالات تحديا للخصوم، أو تطمينا لقلوب الأحبة المؤمنين، علما بأن أعظم معجزاتـه ﷺ هي القرآن الكريم، هذه المعجزة التي كفت وأوفت.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٥ .

الفصل الأول

السنة حياة

أثر السنة النبوية في النورسي

السنة حياة.. من أخذ بنصيب منها أخذ بحظه من الحياة.. والسنة ارتفاع وسمو.. من تعلق بشيء منها رفعته وسمت به.. والسنة تقدم وارتقاء.. من احترم ناموسها، وجرب دساتيرها تقدم وارتقى..

والسنة طهر ونقاء.. من استظل بغمامها، وتعرض لا ندائها طهر قلبه، وتنقى فكره...

والنورسي -رحمه الله- يدرك أهمية السنة، ومدى ما يفيد منها المؤمن في حياته، ولا سيما عندما تضطرب الموازين إلا ميزان السنة، ويسود الهرج والمرج، ويشيع في المجتمع الفساد، وتكثر البدع، فلا خلاص للمسلم، ولا نجاة له إلا باللجوء إلى السنة.

وإليك ما يقوله النورسي بهذا الخصوص في النكتة الأولى من اللمعة الحادية عشرة التي خصها من كتاب "اللمعات" للسنة النبوية الشريفة والتي سماها "مرقاة السنة وترياق مرض البدعة":

obeikandi.com

"قال الرسول ﷺ:

(مَن تمسّك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد).[1]

أجل! إن اتباع السنة المطهرة لهو حتما ذو قيمة عالية، ولاسيما اتباعها عند استيلاء البدع وغلبتها، فان له قيمة أعلى وأسمى، وبالأخص عند فساد الأمة، إذ تُشعر مراعاة ابسط الآداب النبوية بتقوى عظيمة وإيمان قوي راسخ؛ ذلك لأن الاتباع المباشر للسنة المطهرة يذكّر بالرسول الأعظم ﷺ، فهذا التذكر الناشئ من ذلك الاتباع ينقلب إلى استحضار الرقابة الإلهية، بل تتحول في الدقائق التي تراعى فيها السنة الشريفة أبسط المعاملات العرفية والتصرفات الفطرية -كآداب الأكل والشرب والنوم وغيرها- إلى عمل شرعي وعبادة مثاب عليها؛ لأن الإنسان يلاحظ بذلك العمل المعتاد اتباع الرسول ﷺ، فيتصور أنه يقوم بأدب من آداب الشريعة، ويتذكر أنه ﷺ صاحب الشريعة، ومن ثم يتوجه قلبه إلى الشارع الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى، فيغنم سكينة واطمئنانا ونوعا من العبادة.

وهكذا، في ضوء ما تقدم فإن من يجعل اتباع السنة السنية عادته، فقد حول عاداته إلى عبادات، ويمكنه أن يجعل عمره كله مشمرا، ومثابا عليه".[2]

ولكن ما هي السنة ؟ وما هي أقسامها ؟ وكيف ينبغي التعامل مع كل قسم منها ؟

يجيب النورسي قائلا: (في النكتة الحادية عشرة من الرسالة نفسها):

---

(١) انظر مصابيح السنة للبغوي ج/ص١٩.

(٢) اللمعات للنورسي ص ٨٠-٨١

''**المسألة الأولى:**

إن لسنة الرسول الأعظم ﷺ ثلاثة منابع، هي:

أقواله، وأفعاله، وأحواله. وهذه الأقسام الثلاثة هي كذلك ثلاثة أقسام:

الفرائض، النوافل، عاداته ﷺ.

ففي قسم الفرائض والواجب، لامناص من الاتباع، والمؤمن مجبر على هذا الاتباع بحكم إيمانه. والجميع بلا استثناء مكلفون بأداء الفرض والواجب، ويترتب على إهماله أو تركه عذاب وعقاب.

وفي قسم النوافل، فأهل الإيمان هم مكلفون به أيضاً حسب الأمر الاستحبابي، ولكن ليس في ترك النوافل عذاب ولا عقاب. غير أن القيام بها واتباعها فيه اجر عظيم. وتغيير النوافل وتبديلها بدعة وضلالة وخطأ كبير.

أما عاداته ﷺ وحركاته وسكناته السامية فمن الأفضل والمستحسن جداً تقليدها واتباعها حكمة ومصلحة سواء في الحياة الشخصية أو النوعية أو الاجتماعية، لان هناك في كل حركة من حركاته الاعتيادية منافع حياتية كثيرة جدا فضلا عن أنها بالمتابعة تصير تلك الآداب والعادات بحكم العبادة''.[1]

ثم ينتقل "النورسي" من السنة بأقسامها إلى صاحب السنة ﷺ، مبينا ما تنطوي عليه ذات محمد ﷺ من أسرار وأنوار لابد لكل مسلم من أن يقتبس منها، ويتخذها مثالا يحذو حذوها في كل شؤون حياته، فيقول:

''نعم، ما دام -عليه الصلاة والسلام- متصف بأسمى مراتب محاسن

(١) اللمعات ص ٩٤.

الأخلاق، باتفاق الأولياء والأعداء. وأنه ﷺ هو المصطفى المختار من بين بني البشر، وهو اشهر شخصية فيهم باتفاق الجميع.. وما دام هو اكمل إنسان، بل اكمل قدوة ومرشد بدلالة آلاف المعجزات، وبشهادة العالم الإسلامي الذي كونه، وبكمالاته الشخصية بتصديق حقائق ما بلغه من القرآن الحكيم.. وما دام ملايين من أهل الكمال قد سموا في مراتب الكمالات، وترقوا فيها بثمرات اتباعه فوصلوا إلى سعادة الدارين.. فلابد أن سنة هذا النبي الكريم ﷺ وحركاته هي افضل نموذج للاقتداء واكمل مرشد للاتباع والسلوك واحكم دستور، واعظم قانون، يتخذه المسلم أساسا في تنظيم حياته.

فالسعيد المحظوظ هو من له أوفر نصيب من هذا الاتباع للسنة الشريفة.

ومن لم يتبع السنة فهو في خسران مبين إن كان متكاسلا عنها.. وفي جناية كبرى إن كان غير مكترث بها.. وفي ضلالة عظيمة إن كان منتقداً لها بما يومئ التكذيب بها.

المسألة الثانية:

لقد وصف الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ في القرآن الحكيم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

ووصفه الصحب الكرام كما وصفته الصحابية الجليلة الصديقة عائشة رضي الله عنها قائلة: (كان خُلُقهُ القرآن).[1] أي: إن محمدا ﷺ هو المثال النموذج لما بينه القرآن الكريم من محاسن الأخلاق، وهو افضل من تمثلت فيه تلك المحاسن، بل انه خلق فطرة على تلك المحاسن. ففي

(١) مسلم، صلاة المسافرين ١٣٩؛ أبو داود، الصلاة ٣١٦؛ النسائي، قيام الليل وتطوع النهار ٢.

الوقت الذي ينبغي أن يكون كل من أفعال هذا النبي العظيم ﷺ وأقواله وأحواله، وكل من حركاتـــه نموذج اقتداء للبشرية، فما اتعس أولئـــك المؤمنين من أمته الذين غفلوا عن سنته ﷺ ممن لا يبالون بها أو يريدون تغييرها فما أتعسهم وما أشقاهم!''.[1]

ماذا يعني الانحراف عن السنة النبوية الشريفة:

يقول النورسي:

''أي السنة بجوانبها الأربعة، تفسير كبير لسنة الله الكبرى المنبثة في العالم الأصغر والأكبر''.

أي في عالم الإنسان والكون الكبير، ويشرح أخوه "عبد المجيد" هذه الجملـــة الوجيزة للنورسي بقوله:

''وهي السنة المحمدية التي جوانبها الأربعة عبارة عن الحديث القدسي والقولي والفعلي والتقريري. وتلك السنة كشافة للسنة الكبرى المنتشرة بين أنواع ذوي الحياة وبين طبقات الكائنات من القوانين والارتباطات التي لا تبديل لها ولا تحويل''.[2]

ومن هنا كان الانحراف عن "السنة النبوية الشريفة" ليس انحرافا عن أصـــل عظيم من أصول الدين فحسب، بل هو انحراف أيضاً عن فطرة الكون والحياة.

ومغالبة هذه السنة أو تحديها هو مغالبة لمجمع "الكونين" ولقواهما المتـــساندة، ومصاولة لملتقى "ناموسين" اللذين يسند أحدهما الآخر ويقويه ويعاونه، وهي محاولة

(١) اللمعات ص ٩٤.

(٢) صيقل الإسلام، قزل إيجاز على سلم المنطق للنورسي ص٢٢.

obeikandl.com

ستبوء -على كل حال- بالإخفاق والفشل الـذريعين... لأن الـسنن الكونيـة بعظمتها وسعتها مندرجة بالضرورة في "السنة النبوية الشريفة"، أو قل إن شئت:

إن السنة النبوية الشريفة مندرجة ضمن الـسنن الكونيـة، فمـن أراد أن يتجاهلها تجاهلته، ومن أراد أن يغلبها غلبته لا محال..

والكشف عن هذه "السنن" وسبر أغوارها، والوقوف على أسرارها وتناولها بكل احترام وحب وتقدير، كان وما يزال من أسباب نهـوض الأمـم، وقيـام الحضارات قديما وحديثا.

وقد تخلف المسلمون، وأفلت زمام الدنيا من أيديهم بسبب انحـسار مـدهم الفكري والحضاري -في عصورهم المتأخرة- ما دون استشراف الآفاق العالية من سنة نبيهم ﷺ، وافتقار نظرهم إلى الشمولية والعمق، وهيمنة "التجزيئية الذهنية" في تحاورهم مع قوانين السنة ومنطقها، حيث لا تقبل "كليات السنة وكياها التركيبي المحكم" بالنظرات المجزئة، والعقول المشتتة. والذهنيات المبعثرة... فوقع الانفـصام الرهيب بين عقل المسلم الانقسامي المحدود، ومنطق السنة الاستيعابي الـشمولي، فحدث -نتيجة لذلك- تأخر المسلم الحضاري عن قافلة العالم.

وعليه فإن أي اثر نبوي شريف ثابت الصحة -علما وتحققا- لا يمكـن أن يفارق سنة كونية أو يصطدم بدستور من دساتيرها بل يجمعها جامع "التعـاون والتساند" ويقويهما حتى لكأنهما وحدة واحدة في عظمة التأثير الذي تحدثانه في حياة الإنسان والإنسانية.

وكم كان اللجوء إلى "السنة" والتعلق بأذيالها، ومتابعة دسـاتيرها سـببا في إنقاذ الكثيرين من ظلمة الضلال والحيرة، ومن التردي في مهاوي الشك والقلق، حيث تضعهم على المحجة البيضاء، فإذا كل شيء يتلألأ أمامهم بنور الوضـوح،

فيمشون في طريقهم على بصيرة من أمرهم، وما أسرع ما يصلون إلى أهـــدافهم ومقاصدهم التي -لولا السنة- لأخطأوا الوصول إليها...

وها هو النورسي يحدثنا هنا عن تجربته مع أنوار السنة، في النكتة الثالثة مـــن الرسالة نفسها:

"عندما كان يسعى هذا السعيد الفقير إلى الله، للخروج من حالة (سعيد القديم)[1] ارتج عقلي وقلبي وتدحرجا ضمن الحقائق إزاء إعصار معنوي رهيب، فقد شعرت كأنهما يتدحرجان هبوطا تارة من الثريا إلى الثرى وتارة صعدا من الثرى إلى الثريا، وذلك لانعدام المرشد، ولغرور النفس الأمارة.

فشاهدت حينئذ أن مسائل السنة النبوية الشريفة بل حتى ابسط آدابها، كل منها في حكم مؤشـــر البوصلة الذي يبين اتجاه الحركة في السفن. وكل منها في حكم مفتاح مصباح يضئ ما لا يحصر من الطرق المظلمة المضرة.

وبينما كنت أرى نفسي في تلك السياحة الروحية أرزح تحت ضغط مضايقات كثيرة وتحت أعباء أثقال هائلة، إذا بي أشعر بخفة كلما تتبعت مسائل السنة الشريفة المتعلقة بتلك الحالات، وكأنها كانت تحمل عني جميع الأثقال وترفع عن كاهلي تلك الأعباء. فكنت أنجو باستسلام تام بالسنة من هموم التردد والوساوس مثل: هل في هذا العمل مصلحة؟ ترى هل هو حق؟. وكنت أرى ميّ ما كففت يدي عن السنة تشتد موجات المضـــايقات وتكثر، والطرق المجهولة تتوعر وتغمض، والأحمال تثقل.. وأنا عاجز في غاية العجز ونظري قصير، والطريق مظلمة. بينما كنت

(١) "سعيد القديم" هو اللقب الذي يطلقه النورسي على نفسه، قبل قيامه بتأليف رسائل النور "١٩٢٦" وقبل أن يأخذ "سعيد الجديد" على عاتقه مهمة إنقاذ الإيمان.

اشعر متى مـــا اعتصمت بالسنة، وتمسكت بها، تتنور الطريق من أمامي، وتظهر كأنها طريق آمنة سالمة والأثقال تخف والعقبات تزول.

نعـــم، هكذا أحسست في تلك الفترة فصدّقت حكم الإمـــام الرباني بالمشاهدة".[1] الذي قال:

"بينما كنت أقطع المراتب في السير والسلوك الروحاني، رأيت أن أسطع ما في طبقات الأولياء، وأرقاهم وألطفهم وآمنهم وأسلمهم هم أولئك الذين اتخذوا اتباع الســـنة الشـــريفة أساسا للطريقة، حتى كان الأولياء العوام لتلك الطبقة يظهرون أكثر بهاءا واحتشاما من الأوليـــاء الخواص لسائر الطبقات.

نعم إن الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ينطق بالحق، فالذي يتمسك بالسنة الشريفة ويتخذها أساساً له، لهو أهل لمقام المحبوبية في ظل حبيب الله ﷺ".[2]

(١) اللمعات ص٨٢.

(٢) اللمعات ص٨١.

obeikandl.com

الفصل الثاني

حضور النبوة

والنبوة -بعد ذلك كله- قوة تشد صلب الزمن المنحل، وتمنعه من التهافت والسقوط، وهي الدم النوراني الجياش بالحيوية والنشاط الذي يسقي شرايين التاريخ الناضبة، ويسكب فيها العنفوان والتألق والإشراق... وهي ماء الحياة التي ينتفض "الموت" نفسه صاحيا منتصبا إذا مالا مس وجهه من رشاش مائها، ورذاذ غمامها، وهي الأمل الباسم والرجاء المشرق عندما تمتلئ النفس الإنسانية بالأسى. وتغرق روحها بالأحزان...

فلابد للمسلم أن يستعين بالسنة النبوية على أوصاب الحياة وأتراحها، وعلى لأواء الكروب وآلامها، وان يستحضر "النبوة" ودساتيرها في ذهنه ووجدانه على أي حال من أحواله، في السراء والضراء، في القوة والضعف، في الصحة والمرض، في السلم والحرب... الخ.

فببركة هذا "الحضور" وبسر هذه "المعية" الدائمة، يظل المسلم متماسكا لا يؤتى على حين غرة من أي ثغرة فيه، ويبقى صاحي الضمير، نقي الوجدان، طاهر القلب، لطيفا ودودا، وثيق الصلة بمولاه، مفعم القلب بمحبته، رضي النفس بطاعته، لا يبتغي غير رضاه..

والنورسي في واحدة من حالات "أساه الفكري" يرى الكون وما فيه من موجودات وكائنات وكأن الموت -وهو مصير كل حي وهو آت لا محال- قد لفها، واخمد أنفاسها، وهو يرى نفسه أيضاً واحدا من الموتى في هذا الموت العام الذي يسيطر على العالم. وهذه النهاية التي ينتهي إليها خيال النورسي كفيلة بأن تهدم أكبر النفوس وأعظمها ما لم تحضر "النبوة" بتعاليمها -في لحظة الحرج هذه- لتمنح النفس العزاء والسلوان وتبشرها بأفراح "الحياة الآتية" ما بعد الموت. فنراه يكتب مصورا مشاعره في النكتة الرابعة من الرسالة نفسها حيث يقول:

''غمرتني -في فترة ما- حالة روحية نبعت من التأمل في رابطة الموت ومن الإيمان بقضية الموت حق، ومن طول التفكر بزوال العالم وفنائه. فرأيت نفسي في عالم عجيب، إذ نظرت فإذا أنا جنازة واقفة على رأس ثلاث جنائز مهمة وعظيمة:

الأولى: الجنازة المعنوية لمجموع الأحياء التي لها ارتباط بحياتي الشخصية، والتي ماتت ومضت ودفنت في قبر الماضي.. وما أنا إلاّ كشاهد قبرها موضوع على جثتها.

الثانية: جنازة عظيمة تطوي مجموع أنواع الأحياء المتعلقة بحياة البشرية قاطبة، والتي ماتت ودفنت في قبر الماضي الذي يسع الكرة الأرضية.. وما أنا إلاّ نقطة تمحى عاجلا ونملة صغيرة تموت سريعا على وجه هذا العصر الذي هو شاهد قبر تلك الجنازة.

الثالثة: الجنازة الضخمة التي تطوي هذا الكون عند قيام الساعة، وحيث إن موته عندئذ أمر محقق لامناص منه، فقد اصبح في نظري في حكم الواقع الآن، فأخذت الحيرة جوانب نفسي، وبهت من هول سكرات

تلك الجنازة المهولة، وبدت وفاتي -التي هي الأخرى آتية لا محال- كأنها تحدث الآن، فأدارت جميع الموجودات وجميع المحبوبات ظهرها لي ومضت، وتركتني وحيداً فريداً، مثلما جاءت في الآية الكريمة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا...﴾. وأحسست كأن روحي تساق إلى المستقبل الممتد نحو الأبد الذي اتخذ صورة بحر عظيم لا ساحل له.. وكان لابد من إلقاء النفس في خضم ذلك البحر العظيم طوعاً أو كرها.

وبينما أنا في هذا الذهول الروحي، والحزن الشديد يعصر قلبي، إذا بمدد يأتيني من القرآن الكريم والإيمان. فمدّتني الآية الكريمة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة:١٢٩) حتى غدت هذه الآية بمثابة سفينة أمان في منتهى السلام والاطمئنان. فدخلت الروح آمنة مطمئنة في حمى هذه الآية الكريمة.. وفهمت في حينها أن هناك معنى غير المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة، وهو المعنى الإشاري. فلقد وجدت فيه سلوانا لروحي، حيث وهب لي الاطمئنان والسكينة.

نعم! إن المعنى الصريح للآية الكريمة يقول للرسول الكريم ﷺ:

إذا تولى أهل الضلالة عن سماع القرآن، واعرضوا عن شريعتك وسنتك، فلا تحزن ولا تغتم، وقل حسبي الله، فهو وحده كاف لي، وأنا أتوكل عليه؛ إذ هو الكفيل بأن يقيض من يتبعني بدلا منكم، فعرشه العظيم يحيط بكل شيء، فلا العاصون يمكنهم أن يهربوا منه، ولا المستعينون به يظلون بغير مدد وعون منه.

كما أن المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة يقول بهذا، فالمعنى الإشاري للآية الكريمة يقول:

أيها الإنسان، ويا من يتولى قيادة الإنسان وإرشاده؛ لئن ودعتك الموجودات كلها وانعدمت ومضت في طريق الفناء.. وإن فارقتك الأحياء وجرت إلى طريق الموت.. وإن تركك الناس وسكنوا المقابر.. وإن اعرض أهل الغفلة والضلالة و لم يصغوا إليك وتردوا في الظلمات.. فلا تبال بهم، ولا تغتم، وقل: حسبي الله، فهو الكافي، فإذ هو موجود فكل شيء موجود.. وعلى هذا، فان أولئك الراحلين لم يذهبوا إلى العدم، وإنما ينطلقون إلى مملكة أخرى لرب العرش العظيم، وسيرسل بدلا منهم ما لا يعد ولا يحصى من جنوده المجندين.. وان أولئك الذين سكنوا المقابر لم يفنوا أبدا، وإنما ينتقلون إلى عالم آخر، وسيبعث بدلا منهم موظفين آخرين يعمرون الدنيا، ويشغلون ما خلا من وظائفها.. وهو القادر على أن يرسل من يطيعه ويسلك الطريق المستقيم بدلا ممن وقعوا في الضلالة من الذاهبين..

فما دام الأمر هكذا، فهو الكفيل، وهو الوكيل، وهو البديل عن كل شئ، ولن تعوّض جميع الأشياء عنه، ولن تكون بديلا عن توجه واحد من توجهات لطفه ورحمته لعباده..

وهكذا انقلبت صور الجنازات الثلاث التي راعتني بهذا المعنى الإشاري إلى شكل آخر من أشكال الأنس والجمال وهو:

إن الكائنات تتهادى جيئة وذهابا في مسيرة كبرى، إنهاء لخدمات مستمرة، واشغالا لواجبات محددة دائمة، عبر رحلة ذات حكمة، وجولة ذات عبرة، وسياحة ذات مهام، في ظل إدارة الحكيم الرحيم العادل القدير ذي الجلال، وضمن ربوبيته الجليلة وحكمته البالغة ورحمته الواسعة".[1]

(١) اللمعات ص ٨٢-٨٣

الفصل الثالث

حب الله ورسوله ﷺ

المحب لله إنسان منفلت في "عبوديته" من سلطان الضرورة والقهر، متحـــرر من ضغوط الخوف والجزع، فهو يجد في "العبودية" تمام وجوده، ويرى في طاعة خالقه روح حياته. قلبه في سجود دائم، وروحه حول الحمى حائم، يترصد لمحة جمال، ويحن إلى قطرة رضى، ويشتاق إلى نفحة محبة.. ولـــو ســـجد ســـجدة استغرقت عمره كله لم يسأم و لم يفتر، و لم ير غير عجزه وتقصيره إزاء خالقه..

وفرق عظيم بين أن يعبد المسلم ربه وهو خائف وجل مشفق، وبين أن يعبده وهو محب وامق مشتاق...

والمحبون – مع ذلك – لا ينالون محبة الله ورضاه إلا بشرط مهم قررته الآية الكريمة ونصّت عليه ألا وهو :

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (سورة آل عمران: ٣١).

فمحمد ﷺ هو الباب العظيم الذي يدلف منه المؤمنون إلى محبة الله سبحانه وتعالى، فمن ادعى محبة الله و لم يأت على هذا الادعاء بدليل من محبة محمد ﷺ، وإتباع سنته، والإقتداء بهديه، فهو واهم مخدوع ليس له نصيب من محبة الله.

وها هو النورسي يتحفنا برائعة من روائعه في تفسيره وشرحه لهـــذه الآيـــة الكريمة فيقول في النكتة العاشرة من رسالة "مرقاة السنة وترياق مرض البدعة":

''قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾.

في هذه الآية الكريمة إيجاز معجز، حيث إن معاني كثيرة قد اندرجت في هذه الجمل الثلاث:

تقول الآية الكريمة: إن كنتم تؤمنون بالله، فإنكم تحبونه، فما دمتم تحبونه فستعملون وفق ما يحبه، وما ذاك إلاّ تشبهكم بمن يحبه.. وتشبهكم بمحبوبه ليس إلاّ في اتباعه، فمتى ما اتبعتموه يحبكم الله، ومن المعلوم أنكم تحبون الله كي يحبكم الله.

وهكذا فهذه الجمل ما هي إلا بعض المعاني المختصرة المجملة للآية، لذا يصح القول: إن أسمى مقصد للإنسان وأعلاه هو أن يكون أهلا لمحبة الله.. فنص هذه الآية يبين لنا أن طريق ذلك المقصد الأسنى إنما هو في اتباع حبيب الله والاقتداء بسنته المطهرة. فإذا ما أتثبتنا في هذا المقام ثلاث نقاط فستتبين الحقيقة المذكورة بوضوح.

النقطة الأولى:

لقد جُبل هذا الإنسان على محبة غير متناهية لخالق الكون، وذلك لان الفطرة البشرية تكنّ حباً للجمال، ووداً للكمال، وافتتاناً بالإحسان، وتتزايد تلك المحبة بحسب درجات الجمال والكمال والإحسان حتى تصل إلى أقصى درجات العشق ومنتهاه.

نعم إن في القلب الصغير لهذا الإنسان الصغير يستقر عشق بكبر الكون. إذ أن نقل محتويات ما في مكتبة كبيرة من كتب، وخزنها في القوة الحافظة للقلب –وهي بحجم حبة عدس– يبين أن قلب الإنسان يمكنه أن يضم الكون ويستطيع أن يحمل حباً بقدر الكون.

فما دامت الفطرة البشرية تملك استعداداً غير محدود للمحبة تجاه الإحسان والجمال والكمال.. وان لخالق الكون جمالا مقدساً غير متناه، ثبوته متحقق بداهة بآثاره الظاهرة في الكائنات.. وان له كمالا قدسياً لا حدود له، ثبوته محقق ضرورة بنقوش صنعته الظاهرة في هذه الموجودات.. وأن له إحسانا غير محدود ثابت الوجود يقينا، يمكن لمسه ومشاهدته ضمن إنعامه وآلائه الظاهرة في جميع أنواع الأحياء.. فلابد انه سبحانه يطلب محبة لا حد لها من الإنسان الذي هو اجمع ذوي الشعور صفة، وأكثرهم حاجة، وأعظمهم تفكراً، وأشدهم شوقاً إليه.

نعم، كما أن كل إنسان يملك استعدادا غير محدود من المحبة تجاه ذلك الخالق ذي الجلال، كذلك الخالق سبحانه هو أهل ليكون محبوبا، لأجل جماله وكماله وإحسانه اكثر من أي أحد كان، حتى أن ما في قلب الإنسان المؤمن من أنواع المحبة ودرجاتها للذين يرتبط بهم بعلاقات معينة، ولاسيما ما في قلبه من حب تجاه حياته وبقائه، وتجاه وجوده ودنياه، وتجاه نفسه والموجودات بأسرها، إنما هي ترشحات من تلك الاستعدادات للمحبة الإلهية. بل حتى أشكال الاحساسات العميقة -عند الإنسان- ما هي إلاّ تحولات لذلك الاستعداد، وما هي إلاّ رشحاته التي اتخذت أشكالا مختلفة.

ومن المعلوم أن الإنسان مثلما يتلذذ بسعادته الذاتية، فهو يتلذذ أيضاً بسعادة الذين يرتبط بهم بعلاقة ومحبة ومثلما يحب من ينقذه من البلاء، فهو يحب من ينجي محبيه من المصائب أيضاً.

وهكذا، فإذا ما فكر الإنسان وروحه مفعمة بالامتنان لله، في إحسان واحد فقط مما لا يعد ولا يحصى من الإحسانات العظيمة التي قد غمر بها الله سبحانه وتعالى الإنسان وشمله بها، فانه سيفكر على النحو الآتي:

إن خالقي الذي أنقذني من ظلمات العدم الأبدية، ومنحني منحة الخلق والوجود، ووهب لي دنيا جميلة استمتع بجمالها هنا على هذه الأرض، فان عنايته أيضاً ستمتد إليّ حين يحين أجلي، فينقذني كذلك من ظلمات العدم الأبدي والفناء السرمدي، وسيهب لي –من فضل إحسانه– عالماً أبدياً باهرا زاهرا في عالم البقاء في الآخرة.. وسينعم عليّ سبحانه بحواس ومشاعر ظاهرة وباطنة لتستمتع وتتلذذ في تنقلها بين أنواع ملذات ذلك العالم الجميل الطاهر.

كما أنه سبحانه سيجعل جميع الأقارب، وجميع الأحبة من بني جنسي الذين اكن لهم حباً عميقاً وارتبط معهم بعلاقة وثيقة، سيجعلهم أهلا لهذه الآلاء والإحسانات غير المحدودة.. وهذا الإحسان –من جهة– يعود عليّ كذلك، إذ إنني أتلذذ بسعادة أولئك، واسعد بها.. فما دام في كل فرد حب عميق وافتتان بالإحسان كما في المثل: الإنسان عبد الإحسان فلابد أن الإنسان أمام هذا الإحسان الأبدي غير المحدود سيقول:

لـــو كان لي قلب بســـعة الكون لاقتضى أن يملأ حباً وعشقاً تجاه ذلك الإحسان الإلهي، وأنا مشتاق لملئه، ولكن رغم أنني لست على مستوى تلك المحبة فعلا، إلاّ أنني أهل لها بالاستعداد والإيمان، وبالنية والقبول، وبالتقدير والاشتياق، وبالالتزام والإرادة.

وهكذا ينبغي قيـــاس مـــا يظهره الإنســـان من المحبة تجاه الجمال وتجاه الكمال بمقياس ما أشرنا إليه مجملا من المحبة تجاه الإحسان.

أما الكافر الملحد، فإنه يحمل عداء لا حد له فهو يستخف بالموجودات من حوله، ويستهين بها، ويمتهنها، ويناصبها العداء والكراهية.

النقطة الثانية:

إن محبة الله تستلزم اتباع الســـنة الطاهرة لمحمد ﷺ، لأن حب الله هو

العمل بمرضياته، وان مرضاته تتجلى بأفضل صورها في ذات محمد ﷺ.
والتشبه بذاته المباركة في الحركات والأفعال يأتي من جهتين:
إحداهما: جهة حب الله سبحانه وإطاعة أوامره، والحركة ضمن دائرة مرضاته، هذه الجهة تقتضي ذلك الاتباع، حيث إن أكمل إمام وأمثل قدوة في هذا الأمر هو محمد ﷺ.
وثانيتهما: جهة ذاته المباركة ﷺ التي هي أسمى وسيلة للإحسان الإلهي غير المحدود للبشرية، فهي إذا أهل لمحبة غير محدودة لأجل الله وفي سبيله.
والإنسان يرغب فطرة في التشبه بالمحبوب ما أمكن، لذا فالذين يسعون في سبيل حب حبيب الله عليهم أن يبذلوا جهدهم للتشبه به باتباع سنته الشريفة.

النقطة الثالثة:

كما أن لله سبحانه وتعالى رحمة غير متناهية، فله سبحانه كذلك محبة غير متناهية. وكما انه يحب نفسه -بصورة غير محدودة- بمحاسن الكائنات جميعاً وبجمالها وزينتها إلى مخلوقاته، فانه كذلك يحب مخلوقاته، ولاسيما أصحاب الشعور منهم الذين يقابلون تحببه لهم بالحب والتعظيم. لذا فإن أسمى مقصد الإنسان في مرضاة ربه، واجلّ سعيه هو أن يكون موضع نظر محبة الله الذي خلق الجنة بلطائفها ومحاسنها ولذائذها ونعمها بتجل من تجليات رحمته.
وبما أن أحدا لا يمكنه أن يكون أهلا لمحبته سبحانه إلاّ باتباع السنة الأحمدية كما نص عليه كلامه العزيز، إذن فاتباع السنة المحمدية هو اعظم مقصد أنساني وأهم وظيفة بشرية". [1]

(١) اللمعات ص ٩٠-٩٤

الفصل الرابع

تجليات الأسماء الحسنى.. والنبوة

إذا كانت "الأرض" قد عرفت "النبوة" في أول إنسان مشى على ظهرها - وهو آدم عليه السلام- فان هذا يعني -في جملة ما يعنيه- لأهل الأرض، وللآتين من البشر في كل عصر وزمان أن "النبوة" اصل من أصول الحياة على هذه الأرض، ولها الأسبقية والتقدمة على حكمة الحكماء، وأفكار الفلاسفة والعقلاء من بني البشر، وهي -بهذا السبق- تكون جذرا إيمانيا عميق الامتداد في تربة الأرض، لا يمكن لشجرة الإنسانية أن تورق وتزهر وتثمر ما لم تستمد عناصر غذائها منه.

لأن "النبوة" هي المرآة التي تنعكس عليها صورة "الإنسان المؤمن" كما يريده الله سبحانه وتعالى، وهي الشمس التي يبصر الإنسان بنورها مواقع قدميه في رحلة الحياة، وهي المثال المجسد للأيمان كما ينبغي أن يعرفه الإنسان ويسعى للارتقاء إليه.. وهي -قبل ذلك وبعد ذلك- خلاصة من خلا صات الكون، ومحصلة من محصلاته، تقطرت "النبوة" من روحه ووجدانه، ونضح "النبي" من فكره وقلبه... ومن يرغب -مستنكفا- عن استزراع شجرة "الإنسانية" في تربة "النبوة" مثله كمثل من يريد أن يزرع شجرة ما في الهواء...

فالنبوة -بهذا الاعتبار- تأخذ في العقل مكانها كإحدى ضرورات الحياة التي

obeikandl.com

لا تستكمل البشرية حياتها إلا بها.فهي كالماء والهواء والشمس لحياة الكائنات.. فكما يصعب علينا إلى حد الاستحالة -تصور أرضنا من غير شمس ولا نهار، كذلك يصعب علينا إلى حد الاستحالة أيضاً- تصور عالم من الطهر والنقاء والصفاء والحق والخير والعدل والجمال، من غير "النبوة" التي لا تقوم هذه المعاني على حقيقتها وصدقها إلا فيها.

فهذه المعاني قائمة في "النبوة" كأجمل وأحسن ما تكون، وقائمة في "النبي" على أظهر ما تكون، لأن "الذات النبوية" مهبط تجليات هذه المعاني المتولدة -بالأصل- من تجليات الأسماء الحسنى، وهي تقتضي وجود النبي..

وتظهر فاعلية "الأسماء الحسنى" وتجلياتها في أوضح صورها وأبين مشاهدها، في نبوة محمد ﷺ وفي رسالته وشريعته...

والنورسي يرى "الأسماء الحسنى" تقتضي نبوة محمد ﷺ قطعا، وان شئت فاستمع إليه عندما يشرح اسم الله "الحَكم" حيث يقول في المسألة الثانية:

"يصح أن يقال: إن اسم الله "الحكم" و"الحكيم" يقتضيان بداهة نبوة محمد ﷺ ورسالته، ويدلان عليها ويستلزمانها.

نعم! مادام الكتاب البليغ بمعانيه ومراميه، يقتضي بالضرورة معلماً بارعاً لتدريسه.. والجمال الفائق يقتضي مرآةً يتراءى فيها، ويُري بها جمالَه وحُسنه.. والصنعةُ البديعة تستدعي منادياً داعياً إليها..

فلابد أن يوجد بين بني البشر الذي هو موضع خطاب كتاب الكون الكبير المتضمن مئات المعاني البليغة والحِكَم الدقيقة في كل حرف من حروفه، أقول:

لابد أن يوجد رائدٌ أكمل، ومعلمٌ أكبر، ليرشد الناس إلى ما في ذلك

الكتاب الكبير من حِكم مقدسة حقيقية.. وليعلّم وجود الحِكَم المبثوثة في أرجائه ويدل عليها.. وليكون مبعث ظهور المقاصد الربانية في خلق الكون، بل السبب في حصولها.. وليرشد إلى ما يريد الخالق إظهارَه من كمال صنعته البديعة، وجمال أسمائه الحسنى، فيكون كالمرآة الصافية لذلك الكمال البديع والجمال الفائق.. ولينهض بعبودية واسعة -باسم المخلوقات قاطبة- تجاه مظاهر الربوبية الواسعة، مثيراً الشوقَ وناثراً الوجدَ في الآفاق براً وبحراً ملفتاً أنظار الجميع إلى الصانع الجليل بدعوةٍ ودعاء، وتهليل وتسبيح وتقديس، ترنّ به أرجاء السماوات والأرض.. وليقرع أسماع جميع أرباب العقول بما يلقّنه من دروس مقدسة سامية وإرشادات حكيمة من القرآن الحكيم.. وليبين بأجمل صورة وأجلاها بالقرآن العظيم المقاصد الإلهية لذلك الصانع "الحكم الحكيم".. وليستقبل بأكمل مقابلة وأتمها مظاهر الحكمة البالغة والجمال والجلال المتجلية في الآفاق. فإنسانٌ هذه مهمته، إنسان ضروري وجوده، بل يستلزمه هذا الكون،كضرورة الشمس ولزومها له.

فالذي يؤدي هذه المهمات، وينجز هذه الوظائف على أتم صورة ليس إلاّ الرسول الأكرم ﷺ كما هو مشاهد؛ لذا فكما تستلزم الشمس الضوء، ويستلزم الضوء النهار، فالحِكَم المبثوثة في آفاق الكون وجنباته تستلزم نبوة محمد ﷺ ورسالته.

نعم! مثلما يقتضي التجلي الأعظم لاسم "الحكم والحكيم" -في أوسع مداه- الرسالة الأحمدية، فان اغلب الأسماء الحسنى؛ "الله، الرحمن، الرحيم، الودود، المنعم، الكريم، الجميل، الرب" وأمثالها، تستلزم الرسالة الأحمدية في اعظم تجلياتها وأحاطتها بالكون كله، استلزاماً قاطعاً لا ريب فيه.

فمثلاً:

إن الرحمة الواسعة التي هي تجلي اسم "الرحيم" تظهر بوضوح بمَن هو "رحمة للعالمين"..

وان التحبب الإلهي، والتعرف الرباني -اللذين هما من تجليات اسم "الودود"- يفضيان إلى نتيجتهما ويجدان المقابلة بـ"حبيب رب العالمين"..

وإن جميع أنواع الجمال: من جمال الذات إلى جمال الأسماء، وجمال الصنعة والاتقان، وجمال المصنوعات، والمخلوقات، كل أنواع الجمال - التي هي تجلٍ من تجليات اسم "الجميل"- تشاهَد في تلك المرآة الأحمدية، وتُشهد بها..

بل حتى تجليات عظمة الربوبية، وهيمنة سلطنة الألوهية إنما تُعرف برسالة هذا الداعية العظيم إلى سلطان الربوبية وتتبين بها، وتُفهم عنها، وتؤخذ منها وتُصدّق بها..

وهكذا فأغلب الأسماء الحسنى إنما هي برهان باهر على الرسالة الأحمدية كما مر آنفاً..

نحصل مما سبق:

ما دام الكون موجوداً بالفعل ولا يمكن إنكاره، فلا يمكن أن يُنكَر كذلك ما هو بمثابة ألوانه وزينته، وضيائه واتقانه، وأنواع حياته، وأشكال روابطه من الحقائق المشهودة، كالحكمة، والعناية، والرحمة، والجمال، والنظام، والميزان، والزينة، وأمثالها من الحقائق..

فمادام لا يمكن إنكار هذه الصفات والأفعال، فلا يمكن إنكار موصوف تلك الصفات، ولا يمكن إنكار فاعل تلك الأفعال ونور شمس تلك

الأضواء، أعني ذات "الله" الأقدس جلّ جلالُه "الواجب الوجود"، الذي هو الحكيم، الرحيم، الجميل، الحكم، العدل..

وكذا لا يمكن إنكار مَن هو مدارٌ لظهور تلك الصفات والأفعال، بل مَن هو مدارٌ لعرض كمالاتها، بل تحقق تجلياتها، ذلكم الرسول الكريم محمد ﷺ، الرائد الأكبر، والمعلم الأكمل، والداعية الأعظم، وكشاف طلسم الكائنات، والمرآة الصمدانية، وحبيب الرحمن.. فلا يمكن إنكار رسالته قطعاً، لأنها اسطع نور في هذا الكون كسطوع ضياء عالم الحقيقة ونور حقيقة الكائنات".[1]

(١) اللمعات ص ٥٣٦-٥٣٨ .

obeikandl.com

الفصل الخامس

حكمة الإخفاء والإبهام

من أجل أن يحتفظ المسلم بالمقدار اللازم من التيقظ الروحي، والصحو الذهني، والترقب المفيد، والقلق الخصيب، أخفى الدين -القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة- الكثير من القضايا و لم يصرح بها، واعتبرها من المجاهيل التي يحمد للمسلم أن، يظل مشدودا إليها، ومتفكرا بأمرها، ومترقبا حضورها، وفي ذلك مصلحة للمسلم أيما مصلحة...!

ويمكن القول:

إن ما جاءت به الشريعة أو أثبتته السنة النبوية الشريفة من أمور ليست سواء من حيث الظهور والوضوح، ومن حيث الخفاء والغموض، وقد راعت الشريعة والسنة النبوية منها في ذلك مصلحة الإنسان نفسه، فأظهرت ما يمكن أن يضره عدم إظهاره.. فهناك من الأمور والأحكام الإيمانية والعقائدية، ما يكاد وضوحها يضاهي وضوح الشمس في رابعة النهار... ثم يتدرج "الدين" من هذا الوضوح الظاهر إلى الأقل وضوحا وظهورا... فيضع على الطريق "الآية" التي تخفي ما وراءها من أسرار الآتي من الأزمان، "والعلامة" التي تشير إلى وقائع وأحداث سينكشف عنها الزمن المقبل يوما بعد يوم.. ثم يتدرج في مسائل أخرى "فيومئ"

و"يرمز" إلى ما سيتمخض عنه الزمن من كشوفات مذهلة في عالم المادة والروح، ثم يترك للإنسان محاولة فك الرمز وفهم الإشارة العلمية.. ثم يمضي ويوغل حتى يبهم ويخفى، ويترك المسلم أمام جملة من "المجاهيل" المتحدية المثيرة التي يجد في الإنشداد إليها لذة الإيمان بالغيب التي هي أروع لذات المؤمن وأعظمها...

فأمام هذه المجاهيل يتبين المؤمنون بالغيب الصادقون في إيمانهم من الشاكين المترددين..

فلو كانت قضايا الدين واحدة في الظهور والوضوح للزم إيمان الناس جميعا، وتساويهم في هذا الإيمان، ولبطل الامتحان، وسقط الخيار ...

والإيمان بـ"غيبيات الدين"، رغم قصور "العقل" عن مطاولتها، وعجزه – بوسائله المحدودة– عن الإحاطة بها، إلا انه لا يجد مناصا من التسليم بها، والانسلال –بشوق– إلى عالم "الحدس"، والاستئناس به، والاطمئنان إليه، لما يجد لديه من بصيرة نافذة –لا يمتلكها في الوقت الحاضر– يخترق بها "اللامتناهي" ويبصر ما وراءه..

وربما استطاع "العقل" –في المستقبل القريب أو البعيد– ومن خلال تجاربه المضنية مع عالمي "المعلوم" و"المجهول" أن تنبت له هذه البصيرة، فتنكشف أمامه أشياء من هذه "الغيبيات" وتصبح "ما أمام العقل" بعد أن كانت "ما وراءه"..

صحيح أننا في حاجة إلى "العقل" وهو قادر على الأخذ بأيدينا إلى حافة "اللامتناهي" مشيرا إلى هذه الحقيقة :

> ''اعلم! أيها المتفكر المتحير المتحري! إذا انتهى علمك إلى شئ، أو رأيت في شيء جهةً من عدم التناهي، فسبّح بحمده تعالى على قربك إلى الحق؛ إذ المجهولية واللاتناهية عنوانان وعلامتان نصبتا على حدود تصرّف ربوبيته المطلقة جل جلاله''.[1]

(١) المثنوي العربي النوري ص ٤٠٠ .

وعليه فليس ما لا يقبله "العقل" أو بالأحرى يقصر عن إدراكه واستيعابه في أحاديث الرسول ﷺ حول أحداث "الساعة" وثواب "الأعمال" يلزم أن نرفضها نحن أيضا..

وأغلب الظن أن النورسي رحمه الله، قد رأى بعضا من هؤلاء المنكرين لأحاديث شريفة وردت في "أحداث الساعة، وفضائل الأعمال" وربما سمع بهم، وذلك بحجة أنها -أي هذه الأحاديث- مما يصعب على العقل التسليم لها، أو التصديق بها. وقد انبرى "النورسي" لهؤلاء وكرس واحدة من رسائله المهمة [1] في الرد عليهم، واعتمد اثني عشر أصلا مهما من أصول فهم الأحاديث الشريفة، وقد رأينا أن نختار منها ما يناسب هذا الفصل دون التقيد بتسلسلها كما جاءت في الرسالة المذكورة.

يقول النورسي رحمه الله في مقدمة رسالته:

"نظراً لشيء من الغموض الذي يكتنف فهمَ قسمٍ من الأحاديث الشريفة التي تبحث في "علامات الساعة وأحداثها" وفي "فضائل الأعمال وثوابها" فقد ضعفها عددٌ من أهل العلم المعتدّين بعقولهم، ووضعوا بعضها في عداد "الموضوعات" وتطرّف آخرون من ضعاف الإيمان المغرورين بعقولهم فذهبوا إلى إنكارها.

ونحن هنا لا نريد أن نناقشهم تفصيلاً، بل ننبه إلى "اثني عشر" أصلاً من الأصول والقواعد العامة التي يمكن الاستهداء بها في فهم هذه الأحاديث الشريفة موضوعة البحث:

(١) وهي الغصن الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين من "الكلمات".

الأصل الأول:

وهو المسألة التي بيناها في الجواب عن السؤال الوارد في نهاية "الكلمة العشرين" ومجملها:

إن الدين امتحان واختبار، يميز الأرواح العالية من الأرواح السافلة، لذا يبحث في الحوادث التي سيشهدها الناس في المستقبل بصيغة ليست مجهولة ومبهمة إلى حد استعصاء فهمها، وليست واضحة وضوح البداهة التي لا مناص من تصديقها. بل يعرضها عرضاً منفتحاً على العقول، لا يعجزها، ولا يسلب منها القدرة على الاختيار.

فلو ظهرت علامة من علامات الساعة بوضوح كوضوح البديهيات، واضطر الناس إلى التصديق، لتساوى عندئذ استعداد فطري كالفحم في خساسته مع استعداد فطري آخر كالألماس في نفاسته، ولضاع سر التكليف وضاعت نتيجة الامتحان سدى.

فلأجل هذا ظهرت اختلافات كثيرة في مسائل عديدة، كمسائل المهدي والسفياني[1] وصدرت أحكام متضاربة لكثرة الاختلاف في الروايات".[2]

"وأصل آخر:

يخفي الحكيم العليم في دار الامتحان وميدان الابتلاء هذا، أموراً مهمة جداً بين ثنايا كثرة من الأمور. وترتبط بهذا الإخفاء حكم كثيرة ومصالح شتى.

فمثلاً: قد أخفى سبحانه وتعالى (ليلة القدر) في شهر رمضان، و (ساعة الإجابة) في يوم الجمعة، و(أولياءه الصالحين) بين مجاميع البشر،

(١) انظر: المستدرك للحاكم ٥٢٠/٤؛ اللآلئ للسيوطي ٣٨٨/٢؛ الاسفراييني ٧٥/٢.

(٢) الكلمات ص ٣٨٦-٣٨٧ .

و(الأجل) في العمر، و(قيام الساعة) في عمر الدنيا.. وهكذا.

فلو كان أجَلُ الإنسان معيناً ومعلوماً وقته، لقضى هذا الإنسان المسكين نصف عمره في غفلة تامة، ونصفه الآخر مرعوباً مدهوشاً كمن يُساق خطوة خطوة نحو حبل المشنقة. بينما تقتضي المحافظة على التوزان المطلوب بين الدنيا والآخرة ومصلحة بقاء الإنسان معلقاً قلبُه بين الرجاء والخوف، أن تكون في كل دقيقة تمر بالإنسان إمكان حدوث الموت أو استمرار الحياة.. وعلى هذا يرجح عشرون سنة من عمر مجهول الأجل على ألف سنة من عمر معلوم الأجل.

وهكذا فقيام الساعة، هو أجَلُ هذه الدنيا، التي هي كانسان كبير، فلو كان وقته معيناً ومعلناً لمضت القرون الأولى والوسطى سادرة في نوم الغفلة، بينما تظل القرون الأخيرة في رعب ودهشة؛ ذلك لان الإنسان وطيد العلاقة بحياة مسكنه الأكبر وبلده الأعظم –الدنيا– بحكم حياته الاجتماعية والإنسانية مثلما يرتبط بمسكنه وبلده بحكم حياته اليومية والشخصية.

نفهم من هذا أن القرب المذكور في الآية الكريمة (اقتربت الساعة) لا يناقضه مرور ألف سنة ونيف، إذ الساعة اجل الدنيا. وما نسبة ألف سنة أو ألفين من السنين إلى عمر الدنيا إلاّ كنسبة يومٍ أو يومين أو دقيقة ودقيقتين إلى سني العمر.

وكذلك لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن يوم القيامة ليس أجل الإنسانية فحسب حتى يقاس قربه وبعده بمقياس عمرها، بل هو أجل الكائنات والسماوات والأرض ذات الأعمار المهولة التي تندّ عن القياس والحساب.

ولأجل هذا فقد أخفى الحكيم العليم موعدَ قيام الساعة في علمه بين

المغيّبات الخمسة، وكان من حكمة الإخفاء هذا أن يخشى الناسُ في جميع العصور قيام الساعة، حتى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا أشدّ خشـــية من قيامها في زمنهم من غيرهم، مع أنهم كانوا يعيشون في خير القرون، وهو قرن السعادة وانجلاء الحقائق، بـــل قال بعضهم إن أشراط الساعة وعلاماتها قد تحققت. فالذين يجهلون حكمة الإخفاء وحقيقته في الوقت الحاضر يقولـــون ظلماً: كيف ظن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم قرب وقوع حقيقة مهمة وخطيرة ستأتي بعد ألف وأربعمائة سنة، ظنوها قريبة في عصرهم، علماً بأنهم كانوا أقدر المسلمين وأفضلهم في إدراك معاني الآخرة، وأحدّ المؤمنين بصيرة وأرهفهم حساً بإرهاصات ما سيأتي به الزمن؟ لكأن فكرهم قد حاد عن الحقيقة ألف سنة!

الجـــواب: لأن الصحابة الكرام -رضي الله عنهم أجمعين- كانوا اكثر الناس تفكراً بالآخرة، وأرســـخهم يقيناً بفناء الدنيا، وأوسعهم فقهاً بحكمة إخفاء الله ســـبحانه لوقت القيامة، وذلك بفضل نـــور الصحبة النبوية وفيضها عليهم، لـــذا كانوا منتظرين أجَل الدنيا، متهيئين لموتها كمن ينتظر أجله الشخصي، فسعوا لآخرتهم سعياً حثيثاً.

ثم إن تكرار الرسول ﷺ (..فانتظروا الساعة) نابع من هذه الحكمة حكمة الإخفاء والإبهام وفيه إرشاد نبوي بليغ، وليس تعييناً لموعد الساعة بالوحي، حتى يُظن بُعده عن الحقيقة، إذ الحكمة شيء يختلف عن العلة.

وهكذا فالأحاديث الشريفة التي هي من هـــذا القبيل نابعة من حكمة الإخفاء والإبهام.

وبناء على هذه الحكمة نفسها، فقد انتظر الناس منذ زمن مديد، بل منذ زمن التابعين ظهور المهدي على أمل اللحاق به والدجال السفياني على

أمل المحاذرة منه، حتى قال قسم من الأولياء الصالحين بفوات وقتهم!

فالحكمة في عـــدم تعيين أوقات ظهورهم هي الحكمة نفسها في عدم تعيين يوم القيامة. وتتلخص بما يأتي:

إن كل وقت وكل عصر بحاجة إلى "معنى" المهدي الذي يكون أساساً للقوة المعنوية، وخلاصاً من اليأس. فيلزم أن يكون لكل عصر نصيب مـــن هذا المعنى. وكذلك يجب أن يكون الناس في كل عصر متيقظين وحذرين من شخصيات شريرة تكون على رأس النفاق وتقود تياراً عظيماً من الشر، وذلك لئلا يرتخي عنانُ النفس بالتسيّب وعدم المبالاة.

فلو كانت أوقات ظهور المهدي والدجال وأمثالهما من الأشخاص معينةً لضاعت مصلحة الإرشاد والتوجيه".[1]

* * *

ولا يشترط من معنى الحديث -في ظهور المهدي والدجال- أن تنشق عنهما الحجب والأستار فجأة ويظهران للعالم بشكل خارق للعادة (ومنـــاف لـــسنة التدرج الكونية) بحيث يلزم أن يعرفهما الجميع حال ظهورهما...

"والحال -كما قلنا- أن الدنيا ميدان اختبار وامتحان، وأن الله تعالى عندما يختبر الإنسان لا يسلب منه الاختيار بـــل يفتح الباب أمام عقله؛ لذا فهؤلاء الأشخاص -أي الدجال والمهدي- لا يُعرفون من قبل كثير من الناس عند ظهورهم، بل لا يَعرف ذلك الدجال الرهيب نفسه أنه دجال بادئ الأمر، وإنما يعرفهم مَن ينظر إليهم بنور الإيمان النافذ إلى الأعماق".[2]

---

(١) الكلمات ص ٣٨٩-٣٩١ .

(٢) الكلمات ص ٣٩٢

الفصل السادس

الدين والبدع

يحسن الابتداع والتغيير والتبديل في كل شيء إلا في "الدين".. لان "الدين" قيمة مطلقة من قيم الوجود، ومن أخص خصائص "القيم" الثبات والاستقرار.

ورغم أن التطور والارتقاء، والتغير من حال إلى حال، والارتفاع من الأدنى إلى الأعلى، والانتقال من الحسن إلى الأحسن، سنة عامة من سنن الحياة، ودستور مهيمن على الكائنات، غير أن "الثبات" على حال واحدة هو الآخر من السنن التي لها النفاذ والهيمنة جنبا إلى جنب مع سنة التحول والتطور والتغير.

و"ثبات الدين" لازم للبشرية، كلزوم ثبات الشمس في شروقها وغروبها، وثبات الأرض في دورانها، والنجوم في سمائها، والليل والنهار في تعاقبهما، والأنهار في جريانها، والبحار في سكونها.

فكما أن "ثبات" بعض الظواهر الكونية المشاهدة عيانا منذ ملايين الملايين من السنين، أمر لازم لديمومة الحياة على الأرض، فكذلك "ثبات الدين" بأصوله وقواعده ورفضه لكل ابتداع أو تغيير فيه، أمر لازم لطمأنينة النفس الإنسانية، واستقرار وجدانها.

والإنسان: هذا الزورق المتفرد الذي يمخر عباب عالم مضطرب متقلب لا

يستقر على حال، لابد له من اجل الحفاظ على تماسكه الذاتي، وتوازنه النفسي من قاعدة صلبة ثابتة لا تحركها أعاصير التغيير، ولا تتقاذفها أمواج التبديل.

وهذه القاعدة الثابتة هي "الدين" الذي ينبغي أن يكون الإنسان مشدودا إليه دائما وأبدا بحبل متين من حباله، وإلاّ انفلت وضاع وطوته أمواج الزمن، وفقد ذاته، وتناثر كيانه، وابتلعته هوة الزمن، كما هي عادتها في ابتلاع الغثاء البشري الطافي فوق تفاهات الحياة.

فالدين هو الوكر الثابت على قمة شجرة الحياة، تأوي إليه روح الإنسان مهما نأت وبعدت وتغربت، وهو العش الوردي الجميل الذي يحن إليه قلب الإنسان، ويدفعه للعودة إليه مهما ابعد في هجره، وبالغ في التحول عنه.

لذا فان "قانون الثبات" كما أنه يحفظ توازن الكون وينظم حركته، فكذلك "ثبات الدين" يحفظ توازن الإنسان ويقيه من الضياع والانحراف والتشتت..

والدين لكونه كيانا موحدا متكاملا، فهو لا يقبل -بطبيعة تكامله- أي عنصر دخيل، أو جسم غريب يلصق به أو يحسب عليه.

والبدع التي يبتدعها المبتدعون -بحسن نية أو سوء نية- على أنها من الدين، يمكنها أن تنطلي على السذج من المؤمنين إلا أنها قلما تفوت أصحاب البصيرة من النقدة الذين ينقدون مسائل الدين، ويعرفون الزائف منها والأصيل، كما يعرف نقدة الصاغة الذهب الخالص من غيره، والذواقون منهم يكادون يميزون الدخيل على الدين ذوقا وفطرة كما تميز الأذن المذواق النغمة النشاز في اللحن الموزون.

وقد حذر الرسول الكريم ﷺ من الابتداع في الدين، وتوعد المبتدعين بعذاب أليم يوم القيامة، والخلود في نار جهنم، لان الابتداع في الدين يفتح الباب واسعا أمام الأهواء البشرية لتغير وتبدل وتنسخ... وتدخل الهوى البشري وابتداعه في

"الدين" يفقد "الدين" أخص خصائصه وهو "الثبات" الذي تصحح به المسارات، وتستقيم عليه كل معوجات الإنسان...

ويرى النورسي أن الفرق الضالة والمبتدعة هم دائما قليلون في جسم العالم الإسلامي، في حين أن الأكثرية الغالبة على نهج السنة والجماعة، ويشير إلى هذا بقوله:

"على الرغم من تمكن عالم الكفر في الإغارة على العالم الإسلامي منذ مدة مديدة فانه لم يتغلب عليه دينياً مع جميع إمكاناته وقدراته ووسائله الحضارية وفلسفته وعلمه ومبشريّه. فبقيت الفرق الضالة جميعها -في الداخل- أقلية محكومة. لذا ففي الوقت الذي حافظ الإسلام على صلابته ومتانته بأهل السنة والجماعة لن يتمكن تيار بدعي مترشح من الجانب الخبيث للحضارة الأوروبية، أن يجد سبيلاً إلى صدر العالم الإسلامي. أي أن القيام بحركة انقلابية جوهرية لا يمكن أن تحدث إلاّ بالانقياد لدساتير الإسلام، وإلاّ فلا. علماً انه لم يحدث مثل هذه الحركة في السابق، ولو كانت قد حدثت فلقد تلاشت سريعاً وأفلَت.."[1]

وفي النكتة السادسة من رسالة "مرقاة السنة وترياق مرض البدعة" يقول النورسي بعد أن يصدر كلامه بالحديث الصحيح:

"قال الرسول ﷺ: (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)،[2] أي: بعد أن كملتْ قواعد الشريعة الغراء ودساتير السنة المطهرة، وأخذت تمام كمالها، بدلالة الآية الكريمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ..﴾ (المائدة: ٣) فإن عدم

(١) المثنوي العربي النوري ص٢٠٢، من بيان "النورسي" في مجلس الأمة التركي سنة ١٣٣٩ (١٩٢٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه احمد (٣/٣١٠، ٣١١ و٣٣٧،٣٣٨،٣٧١) ومسلم (٨٦٧) والنسائي (٣/ ١٨٨) وابن ماجة (٤٥) والبيهقي في السنن (٣/٢١٣، ٢١٤) .

استحسان تلك الدساتير بمحدثات الأمور، أو إيجاد البدع التي تشعر كأن تلك القواعد ناقصة –حاش لله– ضلال ليس له مستقر إلاّ النار''.[1]

ويقول أيضاً في خطورة "البدع" على صاحبها وعلى الأمة بأسرها:

''إن من ينحرف عن طريق تلك القافلة العظمى بإحداث البدع، أين سيلتمس النور ليستضئ، والى أين سيسلك؟''.[2]

ثم بين أن من الأضرار الجسيمة للبدع هي الحيلولة دون استجابة الدعاء، فتقف "البدعة" حجابا بين الدعاء وبين الاستجابة.. فتصبح "البدع" المنتشرة في أي بلد سببا في عدم الاستجابة وكشف الضر عن الأمة، ونيلها الفرج، ومن هنا نهى بعض العلماء عن الدخول إلى الأماكن التي تكثر فيها البدع.

ثم يمضي النورسي في تبيان ما يمكن أن تقع به "الفرق المبتدعة" من شطط يرديهم إلى الدرجات الدنيا من سلم الإيمان، فهناك منهم من يبهره جمال العقل فرجحوا أحكامه على أحكام النقل، فيقول في بيان ذلك:

''على الرغم من أن "المعتزلة" هم من العلماء المتبحرين في"علم الكلام" فإنهم لم يبلغوا في كل ما علوا إلاّ إلى درجة "المؤمن الفاسق المبتدئ" وذلك لاحتكامهم إلى "العقل" في الأمور، وافتتانهم بزخرف كلام الفلاسفة''[3] لدرجة أنهم جعلوا الحكم للعقل، واتخذوه حاكما، والحال أن أهل السنة يرون: أن كل مسألة من المسائل الإسلامية موافقة ومنسجمة مع موازين العقل، أي "معقولة بالذات". فالإسلام قد ثبت جميع أحكامه على أسس عقلية، إلا أن العقل لا يستطيع بطاقته

(١) اللمعات ص ٨٦

(٢) المكتوبات ص ٥١٠.

(٣) الكلمات ص ٦٤٥

المحدودة وحدها أن يستوعب كل مسألة من مسائل الدين، لذا لا يمكن أن يتخذ العقل مقياسا للحكم على الأمور، وجعل "النقل" ثانويا. إذ المسائل التي لا يتحملها العقل وهي فوق طاقته يصار فيها الأمر إلى "النقل" ويسلم له تسليما، ويذعن له إذعانا...

وينبه "النورسي" إلى خطأ شائع يقع فيه عامة الناس، بحكمهم على مذاهب "أهل البدع" بأنها باطلة بطلانا مطلقا بجزئياتها وكلياتها وهو يرى وجود شيء من الحق أو الحقيقة فيها، وهذا "الجزء" من الحق هو الذي يروج للمذهب ويجعله يشيع بين الناس.

يقول النورسي في النكتة الثالثة من المسألة السادسة من المكتوب الثامن عشر:

"فالمسالك والمذاهب مهما كانت باطلة، ففيها حق وحقيقة ولو بمقدار "حبة خردل"، وهي الأصل الذي يقوم عليه المذهب، فإن كان "الحق والحقيقة" لهما الهيمنة على آثار المذهب ونتائجه، وكانت النواحي السلبية فيه مغلوبة إزاء النواحي الإيجابية، فان ذلك المسلك يمكن أن يندرج تحت لواء "الحق"، ولكن إن كان "الحق" الذي فيه لا يسري إلى النتائج ولا يهيمن بالكلية على تلك المذاهب، وكانت سلبياته هي الغالبة، فهذا المسلك باطل، وأهله مبتدعون وضالون.

وبناء على هذه القاعدة: فإذا نظرنا إلى فرق "البدع" في العالم الإسلامي يظهر لنا، أن أصحاب كل مسلك قد اتخذوا طريقهم مستندين على حق معين، ولكن الجهة السلبية -إما بسبب الأغراض الشخصية أو العناد- هي التي صرفت آثار ذلك المسلك إلى الضلالة.. .

وهكذا نرى مثل هذه الحقيقة في كل مسلك من المسالك سواء الجبرية، أو المعتزلة، أو أية فرقة من الفرق الأخرى، فينخدع الناس -بهذه الحقيقة الجزئية- ثم

يندرجون تدريجيا إلى طريق الضلالة". ويؤكد هذا المعنى بقوله:

"ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة، لها محلها الخاص بها، وينشأ الباطل من تعميمها".[1]

ويجمل بنا أن نختم هذا الفصل بما جاء في النكتة التاسعة من رسالة مرقاة السنة وتجنب البدعة، يقول النورسي:

"قد لا يتيسر اتباع كل نوع من أنواع السنة الشريفة اتباعاً فعلياً كاملاً إلاّ لأخص الخواص، ولكن يمكن لكل واحد الاتباع عن طريق: النية والقصد والرغبة في الالتزام والقبول. ومن المعلوم انه ينبغي الالتزام بأقسام الفرض والواجب. أما السنن المستحبة في العبادة فتركها وإهمالها وان لم يكن فيه إثم إلاّ انه ضياع لثواب عظيم، وفي تغييرها خطأ كبير. أما السنن النبوية في العادات والمعاملات فإنها تصيّر العادة عبادة رغم أن تاركها لا يلام، إلاّ أن استفادته تقل وتتضاءل من نور الآداب الحياتية لحبيب الله ﷺ.

أما البدع فهي: إحداث أمور في الأحكام العبادية، وهي مردودة حيث إنها تنافي الآية الكريمة: ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ..﴾ غير أن تلك الأمور المستحدثة إن كانت من قبيل الأوراد والأذكار والمشارب – كالتي في الطرق الصوفية– فهي ليست ببدعة ما دامت أصولها مستقاة من الكتاب والسنة. إذ إن تلك الأصول والأسس المقررة رغم أنها بأشكال مختلفة وأنماط متباينة إلاّ أنها مشروطة بعدم مخالفتها للسنة النبوية وبعدم تغييرها لها. وعلى الرغم من ذلك فقد ادخل قسم من أهل العلم

(١) الكلمات ص ٨٥٣

بعضاً من هذه الأمور ضمن البدع، إلا انهم أطلقوا عليها البدعة الحسنة. ولكن الإمام الرباني يقول: كنت أرى في سيري عبر السلوك الروحاني أن الكلمات المروية عن الرسول الأعظم ﷺ منورة متألقة بشعاع السنة المطهرة، في حين كنت أرى الأوراد العظيمة والحالات البـــاهرة غير المروية عنه ليس عليها ذلك النور والتألق. فما كان يبلغ اسطع ما في هذا القسم -الأخير- إلى اقل القليل لما في السنة.. ففهمت من هـــذا: إن شعاع السنة المطهرة لهو الإكسير النافذ، فالسنة المطهرة كافية ووافية لمن يبتغي النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها..

فهذا الحكم الصادر من هذا الرائد البطل من أبطال الحقيقة والشريعة ليظهر لنا: أن السنة السنية هي الحجر الأساس لسعادة الدارين ومنبع الكمال والخير.

اللهم ارزقنا اتباع السنة السنية.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٥٣)".[1]

(١) اللمعات ص ٩٠

obeikandl.com

الفصل السابع

جمالية الأدب النبوي الشريف

إن اعظم ما أنتجته القرائح البشرية من آداب، لا تزيد عن كونها وسيلة تفتح بصيرة الإنسان على جمال النفس والفكر والحياة، وهاتفا يهتف به أن يرود آفاق هذا الجمال، ويغريه بتذوقه والارتقاء بنفسه إليه.

ورغم أن هذه الآداب العالية، كانت وما زالت مرتع استمتاع الملايين من الناس في أرجاء العالم، إلا أنها تبدو عاجزة -بكل طاقاتها- عن صياغة أناس يحيون فعلا أفكارها، ويمارسون عمليا طهارة النفس والفكر والحياة، وينحتون وجودهم مثالا مجسما للجمال والطهر الذي توحي به، وتومئ إليه.

وكل الذي استطاعت أن تفعله -هذه الآداب- هو أن تملأ أذهان قارئيها وخيالهم بصور الجمال والطهر والشرف والفضيلة، زمانا يقصر أو يطول، من دون أن تعلمهم سبل إحياء هذه الصور، والانتقال بها من الذهن والخيال إلى دنيا الواقع والعمل.

أما الآداب النبوية الشريفة، فهي تتسع لأشرف ما في الآداب العالمية من مقاصد وغايات، وترتقي فوقها.. فالطهر والجمال هو الأساس الأصيل والعميق الذي يقوم عليه "الأدب النبوي الشريف" بسموه وشموخه.. وهو أدب -كما يحدثنا التاريخ-

obeikandl.com

ارتقت به الحياة وسمت. وشرف به العالم، وأثرى به الوجود الإنساني حتى قبل أن يعرف طريقه إلى كتب التاريخ والسير.. فقد كتبت سطوره على الأرض قبل أن تنتقل إلى أي كتاب.. وهو واقع أعظم من كل خيال.. وحقيقة أروع من كل حلم، وصور جمالية مسكوبة في شخوص تمشي على الأرض، وتتجول بين الناس اكثر بهاء مما يمكن أن تتصوره اشرف العقول وأبعدها خيالا...

و"الذات المحمدية" هي مجمع هذه الآداب وخزينتها، وهي موضع سر الأدب الإلهي المتنزل عليها، والمغمورة بأنواره، المتأسية به، فلا غرو أن يبلغ كلامه ﷺ وسلوكه -حتى في خصوصيات حياته- قمة أدب النفس والفكر والحياة. فيصقل نفس سامعه، ويرتقي بوجدانه، ويشيع في كيانه أحاسيس الذوق والجمال، ويستزرع في روحه ربيعا إلهيا دائم الخضرة لا ييبس ولا يمحل...

وسنته ﷺ تأخذ أيضاً بيد الفكر البشري المثقل بهموم الإنسان الأرضية، وترتقي به إلى تطلعات أعلى، وأنشطة أرقى، وتدفع به إلى آفاق "المعرفة الإلهية" التي هي اشرف المعارف وأجدرها باهتمامات العقل...

وكذلك تهدف "السنة النبوية الشريفة" إلى غسل العقل من أدران العجب والغرور، وتطهيره من بوائق الشرك ما خفي منه وما ظهر، حتى يصفو ويتلألأ بجمال "واجب الوجود" واهب العقل، ومانح الفكر.

ولم تعرف الأرض -منذ عرفت الإنسان- إنسانا عرف قدسية الحياة واحترامها، ولفت الانتباه إلى جمالها، وأشار إلى طهرها، وعلم الإنسان كيف يتناولها بالشكر والأدب من يد خالقها، كمحمد ﷺ...

والنورسي رحمه الله، يلفت انتباهنا إلى هذه المعاني في "السنة الشريفة".

ففي النكتة السابعة من رسالة "مرقاة السنة" يقول:

"إن السنة النبويـــة المطهرة في حقيقة أمرها لهي أدب عظيم، فليس فيها مسألة إلاّ وتنطوي على أدب ونور عظيم. وصدق رسول الله ﷺ حين قـــال: (أدبني ربي فأحسن تأديبي).[1] نعم، فمن بمعن النظر في الســـيرة النبوية ويحط علماً بالسنة المطهرة، يدرك يقيناً أن الله سبحانه وتعالى قد جمع أصول الآداب وقواعدها في حبيبه ﷺ. فالذي يهجر ســـنته المطهرة ويجافيها فقد هجر منابع الأدب وأصوله، فيحرم نفسه من خير عظيم، ويظل محروماً من لطف الرب الكريم، ويقع في سوء أدب وبيل".[2]

ومن ابرز لفتات النورسي اكتشافه للعلاقة الصميمية بـــين "جمـــال الآداب" و"جمال الأسماء الحسنى". فهو يرى أن "الأسماء الحسنى" هي منبع كل جمـــال في هذا الوجود، فيقول :

"كما أن الصانع ذا الجلال يظهر صنعته إظهاراً جميلاً في نظر مخلوقاته، ويأخذ الأمـــور المستكرهة تحت أســـتار وحجب، ويزين نِعَمه ويجمّلها حتى لتشتاقها الأبصار. كذلك يطلب ســـبحانه من مخلوقاته وعباده أن يظهروا أمـــام ذوي الشـــعور بأجمل صـــورهم وأكثرها حسناً؛ إذ إن ظهورهم للمخلوقات في حـــالات مزرية قبيحة، وأوضـــاع مستهجنة، يكون منافياً للأدب الجميل، ونوعاً من العصيان تجاه قدسية أسمائه أمثال: الجميل، المزين، اللطيف، الحكيم. وهكذا فالأدب الذي في السنة النبوية الطاهرة إنما هو تأدب بالأدب المحض الذي هـــو ضمن الأسماء الحسنى للصانع الجليل.

ثانيـــــاً: إن الطبيب له أن ينظر إلى أشد الأماكن حرمة لمن يحرم عليه،

---

(١) ابن السمعاني في أدب الإملاء (شرح المناوى على الجامع الصغير). انظر: كشف الخفاء ١/٧٠.

(٢) اللمعات ص٨٧.

من زاوية نظر الطب والعلاج. بـــل يكشف له -في حالات الضرورة- تلك الأماكن ولا يعد ذلك خلافاً للأدب، وإنما يعتبر ذلك من مقتضيات الطب. إلاّ أن ذلك الطبيب نفسه لا يجوز له أن ينظر إلى تلك الأماكن المحرمة من حيث كونه رجلا أو واعظاً أو عالماً، فلا يسمح الأدب قطعاً بإظهارها له بتلك العناوين والصفات. بل يعد ذلك انعداماً للحياء.

ولله المثل الأعلى فان للصانع الجليـــل أسماء حســـنى كثيرة، ولكـــل اســـم تجليه، فمثلا:

كما يقتضي اسم الغفار وجود الذنوب، واسم الستار وجود التقصيرات، فإن اسم الجميل لا يرضى برؤية القبح. وان الأسماء الجمالية والكمالية، أمثال: اللطيف، الكريم، الحكيم، الرحيم، تقتضي أن تكون الموجودات في احسن الصور، وفي افضل الأوضاع الممكنة. فتلك الأسماء الجمالية والكمالية تقتضي إظهار جمالها؛ بالأوضاع الجميلة للموجودات وتأدبها بالآداب الحسنة، أمام أنظار الملائكة والعالم الروحاني والجن والإنس.

وهكذا فالآداب التي تتضمنها السنة المطهرة إشـــارة إلى هـــذه الآداب السامية، ولفتة إلى دساتيرها ونماذجها".[1]

(١) اللمعات ص ٨٨.

الفصل الثامن

بشر . . . رسول

بشرية محمد ﷺ مسألة مفروغ منها، لا يناقش فيها أحد، وهي معلومة من الدين بالضرورة.

فهو ﷺ يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويجوع ويشبع، ويصوم ويفطر، ويصلي من الليل وينام، ويتزوج النساء ويجرح في الحروب، وتكسر رباعيته الشريفة، ويصح ويمرض، ويموت كما يموت البشر جميعا.

ولكن من الإجحاف والظلم العظيم في حق هذا الرسول الكريم، وقوف البعض عند شؤونه البشرية فحسب، والمغالاة في ذلك، والتأكيد عليها في كل مناسبة، ومن دون مناسبة أحيانا أخرى، حتى أدى هذا النهج المغالي -مع الأسف الشديد- عند البعض من عامة المسلمين إلى تجريد الرسول ﷺ -بحسن نية ودون شعور منهم- من القداسة التي منحها الله له، وأفاضها عليه.. وحتى تجرأ آخرون من حملة الأقلام من الذين كتبوا في حياته ﷺ، على إغفال نبوته ورسالته، وتسليط الأضواء على جوانب معينة من مناحي عبقريته البشرية في شؤون الحياة والمجتمع.

فمحمد ﷺ الإنسان الذي يأخذ أعرابي -لبعض حاجته- بزيق ثوبه حتى ليكاد يختنق، ويقاضيه الدائنون ديونهم، ويحمل حاجته من السوق بنفسه، هو

نفسه محمد الذي وقف جبريل عليه السلام دونه في المعراج وقال له: "امض فإن الله لا يضيعك... فوالله لو اقتربت قيد أنملة من هاهنا لاحترقت...". وهو الذي انشق القمر بإشارة من إصبعه، وهو الذي تفجر الماء من بين أصابعه الشريفة... وهو هو صاحب عشرات بل مئات المعجزات التي لا ينبغي أن نغفلها ونحن نتحدث عنه ﷺ، وألاّ نفرط في جانب من حياته على حساب آخر.

يقول النورسي رحمه الله:

"إن أحوال الرسول ﷺ وأوصافه قد بُيّنت على شكل سيرة وتاريخ. إلاّ أن اغلب تلك الأحوال والأوصاف تعكس بشريته فحسب، إذ إن الشخصية المعنوية لتلك الذات النبوية المباركة رفيعة جداً وماهيته المقدسة نورانية إلى حدّ لا يرقى ما ذُكر في التاريخ والسيرة من أوصاف وأحوال إلى ذلك المقام السامي والدرجة الرفيعة العالية، لأنه ﷺ في ضوء قاعدة "السبب كالفاعل" تضاف يومياً -حتى الآن- إلى صحيفة كمالاته عبادةٌ عظيمة بقدر عبادات أمته بأكملها. وكما ينال باستعداد غير متناه نفحات الرحمة الإلهية غير المتناهية بشكل غير متناهٍ وبقدرة غير متناهية، كذلك ينال يومياً دعاءً غير محدود ممن لا تحد من أمته.

هذا النبي المبارك ﷺ الذي هو أنبل نتائج الكائنات واكمل ثمراتها والمبلّغ عن خالق الكون، وحبيب رب العالمين، لا تبلغ أحوالُه وأطوارهُ البشرية التي ذكرَتْها كتب السيرة والتاريخ الإحاطة بماهيته الكاملة ولا تصل إلى حقيقة كمالاته. فأنّى لهذه الشخصية المباركة الذي كان كلٌّ من جبرائيل وميكائيل مرافقين أمينين[1] له في غزوة بدر أن تنحصر في حالة ظاهرية

(١) انظر صحيح البخاري (٥/ ١٠٣) باب شهود الملائكة بدراً.

أو أن تظهرها بجلاء حادثة بشرية كالتي وقعت مع صاحب الفرس الذي ابتاع ﷺ الفرس منه ولكنه أنكر هـذا البيع وطلب من الرسول الكريم شاهداً يصدّقه فتقدم الصحابي الجليل "خزيمة" بالشهادة له.[1]

فلئلا يقع أحدٌ في غائلة الخطأ يلزم من يسـمع أوصـافه ﷺ البشرية الاعتيادية أن يـرفـع بصره دوماً عالياً لينظر إلى ماهيته الحقيقية، والى شخصيته المعنوية النورانية الشـامخة في قمة مرتبة الرسـالة، وإلاّ أساء الأدب، ووقع في الشبهة والوهم.

ولإيضاح هذه المسألة تأمل في هذا المثال:

نواة للتمر وضعت تحت التراب فانفلقت عن نخلة مثمرة باسقة، وهي في توسع ونمو مطرد، أو بيضة للطاووس فقست عن فرخ الطاووس بعدما سلطت عليها الحرارة، وكلما نما وكبر اصبح اجمل وأزهى، بما زيّن قلمُ القدرة على كل جهاته من نقوش بديعة رائعة.

فهناك صفات وحالات خاصة تعود لكل من تلك النواة ولتلك البيضة، ويحوي كل منهما مواد دقيقة لطيفة جداً. والنخلة والطاووس كذلك لهما صفات عالية وكيفيات وأوضـاع راقية بالنسبة لصفات البذرة

---

(١) عن عمارة بن خزيمة "ان عمه حدثه وكان من أصحاب النبي ﷺ انه ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس لا يشعرون ان النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابي النبي ﷺ، فقال إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعته. فقال النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي: او ليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعتك، فقال النبي ﷺ بلى قد ابتعته، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً، قال خزيمة: أنا اشهد انك قد ابتعته، فاقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: بِمَ تشهد؟ فقال: بتصديقك يارسول الله، فجعل شهادة خزيمة شهادة رجلين". حديث صحيح: رواه أبو داود برقم (٣٦٠٧) وأحمد (٢٢/ ٢٣٣ – ٢٣٤). وفي المجمع (٣٢٠/٩) من حديث خزيمة بن ثابت، قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله كلهم ثقات اهـ. وأورده الحافظ في المطالب العالية (٤٠٥٢) ورمز المحقق لصحته. وانظر الإصابة (٢٢٦٠) ونيل الأوطار ١٨٠/٥.

والبـــيضة. فعندما تُربط أوصاف النواة والبيضة بأوصاف النخل والطير وتُذكران معاً، يلزم أن يرفع العقل الإنساني بصره عن النـــواة إلى النخلة وينظر إليها، وان يتوجه من البيضة إلى الطاووس ويمعن فيـــه، كي يقبل تلك الأوصـــاف التي يسمعها. وبخلافه ينساق إلى التكذيب حين يسمع أحدهم يقول: "لقد اخذتُ طناً من التمر من حفنة من النـــوى، أو هذه البيضة هي سلطان الطيور".

وهكذا فإن بشرية الرسول الأكرم ﷺ تشبه تلك النواة أو البيضة "في المثال" وماهيته المشعة بمهمة الرسالة مثلُها كمثل شجرة طوبى الجنة وطير الجنة في سمو ورقي.

لذا في الوقت الذي نفكر في النـــزاع الـــذي حصل في السوق مع البدوي، يلزم أن نرفع عين الخيال عالياً ونتصور الذات النورانية الممتطية الرفرف "البُراق" والمنطلقة سعياً إلى قاب قوسين أو أدنى، تاركة خلفها جبريل عليه السلام. وإلاّ فان النفس الأمّارة بالسوء إما ستسئ الأدب وتنحط إلى درك قلة التوقير والاحترام، أو تزل قدماها إلى عدم التصديق".[1]

وذكر النورسي أيضاً في حكمة تأثر الرسول ﷺ بما يتأثر به كل البشر فيقول في رسالة "حكمة الاستعاذة" :

"وإذا قيل:

لما كان الرسول الأكرم ﷺ حبيبُ رب العالمين ولا ينطق إلاّ بالحقّ ولا يملك إلاّ الحقيقة، وقد أمدّه الله في غزواته بملائكة جنوداً مسوّمين، وارتوى جيش كامل من غرفة من ماء تفجّر من بين أصابعه، وشَبَعَ ألف

(١) المكتوبات ص ١٢٣-١٢٥

من الناس بشاةٍ مطبوخة وحفناتٍ من قمح، وهزم الكفار بقبضة من تراب رماها على عيونهم ودخلت تلك القبضة من التراب في عين كل كافر.. إن قائداً ربانياً يملك أمثال هذه المعجزات الباهرة وكثيراً غيرها، كيف يُغلب في نهاية أُحد وبداية حُنَين؟.

الجواب: إن الرسول ﷺ قد أُرسل إلى البشرية كافة، قدوةً وإماماً ورائداً، كي تتعلم منه مناهج الحياة الاجتماعية والشخصية ودساتيرَها، وتَتعود على الانقياد لقوانين الإرادة الإلهية الحكيمة وتنسجم مع دساتيرها الربانية. فلو كان الرسول ﷺ مستنداً إلى المعجزات وخوارق العادات في جميع أفعاله الشخصية منها والاجتماعية لما تسنّى له أن يكون إماماً مطلقاً ولا قدوةً كاملة حسنة للبشرية قاطبةً.

ولهذا السبب لم يُظهر ﷺ المعجزات إلاّ تصديقاً لدعواه، بشكل متفرق، عند الحاجة، لكسر عناد المنكرين. أما في سائر الأوقات فقد كان ﷺ مراعياً بكل دقة لقوانين عادة الله ولسننه الجارية، ومطيعاً طاعة كاملة لنواميسه المؤسسّة على الحكمة الربانية والمشيئة الإلهية، كطاعته ومراعاته للأوامر الإلهية، لذا كان ﷺ يلبس الدرع في الحروب، ويأمر الجنود بالتترّس بالموانع ضد الأعداء، ويُجرَح ويتأذى ويتحمل المشقّات.. كل ذلك لكي يُبيّن مدى طاعته الكاملة ومراعاته للقوانين الإلهية الحكيمة، وانقياده التام لشريعة الفطرة الكونية ونواميسها".[1]

(١) اللمعات ص ١٢٥

الفصل التاسع

متشابهات الحديث

في الحديث الشريف كما في القرآن الكريم متشابهات، والمتشابه من القرآن أو الحديث قد يعرف مراميه ومقاصده "الراسخون في العلم" وقد لا يعرفون، فيرفعون أيدي العجز والتسليم بـ (كلٌّ من عند ربنا)، ويتركون هذه المتشابهات للراسخين في العلم من الأجيال الآتية، لعل الله يفتح عليهم من الفهم ما لم يفتحه على الآخرين من قبلهم.

و"النورسي" يتتبع -في مواضع عدة من الرسائل- بعض هذه الأحاديث الشريفة التي تشكل إشكالات معينة في تصور الغالبية العظمى من المسلمين، ويجهد في شرحها وحل إشكالاتها، وها هو يحدثنا في "السر الخامس" من أسرار ''بسم الله الرحمن الرحيم'' عن واحد من هذه الأحاديث بعدما يبين تجليات الرحمة الإلهية على وجه الكون ووجه الأرض، فيقول :

''لقد ورد في حديث شريف (إن الله خلق آدمَ على صورة الرحمن)[1] أو كما قال ﷺ.

فسَّرَ قسمٌ من أهل الطرق الصوفية هذا الحديث الشريف تفسيراً عجيباً

(١) انظر: الحافظ في الفتح ١٨٣/٥ قال باسناد رجاله ثقات.

لا يليق بالعقائد الإيمانية، ولا ينسجم معها. بـــل بلغ ببعضٍ من أهل العشق أن نظروا إلى السيماء المعنوي للإنسان نظرتهم إلى صورة الرحمن! ولما كان في اغلب أهل العشق حالة استغراقية ذاهلة والتباس في الأمور، فلربما يُعذَرون في تلقّياتهم المخالفة للحقيقة. إلاّ أن أهل الصحو، وأهل الوعي والرشـــاد يرفضون رفضاً باتاً تلك المعاني المنافية لأسس عقائد الإيمان، ولا يقبلونها قطعاً. ولـــو رضي بها أحـــدٌ فقد ســـقط في خطأ وجانَبَ الصواب.

نعم، إن الذي يدبـــر أمور الكون ويهيمن على شـــؤونه بسهولة ويسر كإدارة قصر أو بيت.. والذي يحرك النجوم وأجرام السماء كالذرات بمنتهى الحكمة والسهولة.. والذي تنقاد إليه الذرات وتأتمر بأمره وتخضع لحكمه..

نعم، إن الذي يفعل هذا كله هو الله القدوس سبحانه.. فكما انه منـــزّه ومقدّس عن الشرك؛ فلا شريكَ له، ولا نظيرَ، ولا ضدّ ولا ندّ، فليس له قطعاً مثيلٌ ولا مثالٌ ولا شبيهٌ ولا صورةٌ أيضاً، وذلك بنص الآية الكريمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) إلاّ أن شؤونه الحكيمة وصفاته الجليلة وأسماءه الحسنى يُنظر إليها بمنظار التمثيل والمَثَل حسب مضمون الآية الكريمة: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم: ٢٧). أي إن المَثَل والتمثيل واردٌ في النظر إلى شؤونه الحكيمة سبحانه.

ولهـــذا الحديث الشريف مقاصد جليلة كثيرة، منها: أن الإنسان مخلوق على صورة تُظهر تجلي اسم الله "الرحمن" إظهاراً تاماً.

نعم، لقد بينا في الأسرار السابقة انه مثلما يتجلى اسمُ "الرحمن" من شعاعات مظاهر ألف اسمٍ واسم من الأسماء الحسنى على وجه الكون، ومثلما يُعْرَض اسم "الرحمن" بتجليات لاتحد للربوبية المطلقة على سيماء الأرض، كذلك يُظهِر سبحانه التجلي الأتم لذلك الإسم "الرحمن" في الصورة الجامعة للإنسان، يُظهِره بمقياس مصغر بمثلِ ما يُظهره في سيماء الأرض وسيماء الكون بمقياس أوسع وأكبر.

وفي الحديث الشريف إشـــارة كذلك إلى أن في الإنسان والأحياء من المظاهر الدالة على "الرحمن الرحيم" ما هو بمثابة مرايا عاكسة لتجلياته سبحانه، فدلالة الإنسان عليه ســـبحانه ظاهرة قاطعة جلية، تشبه في قطعيتها وجلائها دلالة المرآة الساطعة بصورة الشمس وانعكاسها على الشمس نفسها. فكما يمكن أن يقال لتلك المرآة: أنها الشمس، إشارة إلى مدى سطوعها ووضوح دلالتها عليها، كذلك يصح أن يقال –وقد قيل في الحديث– إن في الإنسان صـــورة "الرحمن"، إشارة إلى وضوح دلالته على اسم "الرحمن" وكمال مناسبته معه ووثوق علاقته به".[1]

(١) اللمعات ص ١٥٤

الفصل العاشر

من أسرار الهزيمة والانتصار

انتصار الباطل على الحق، واندحار العدل أمام القوة الغشوم، في مواقف كثيرة وحاسمة عبر التاريخ الإنساني والإيماني، مسألة أذهلت المؤمنين والأخلاقيين والفلاسفة والحكماء.

لان مبادئ الإيمان والأخلاق والحكمة كلها ترى في الحق قوة ذاتية غالبة، بينما يحمل الباطل في جوفه جرثومة فنائه وانهزامه، إذن فما السر في انتصار الباطل وأهله على الحق وأهله في مواطن كثيرة، وأين نذهب بالحكمة التي تقول: "الحق يعلو".

سئل "النورسي" رحمه الله يوما هذا السؤال:

"لما كان "الحق يعلو" أمراً حقاً لا مراء فيه، فلِمَ ينتصر الكافرُ على المسلم، وتغلُب القوة على الحق؟".

يقول النورسي:

"قلت: تأمل في النقاط الأربع الآتية، تنحل المعضلة.

النقطة الأولى:

لا يلزم أن تكون كلُّ وسيلةٍ من وسائل كل حقٍّ حقاً، كما لا يلزم أيضاً أن تكون كلُّ وسيلةٍ من وسائل كلِّ باطلٍ باطلاً.

فالنتيجة إذن: أن وسيلةً حقة (ولو كانت في باطل) غالبةٌ على وسيلةٍ باطلة (ولو كانت في الحق)".

فأي خلل في وسائل الحق، وانسلال وسيلة باطلة إليه يؤدي إلى انهزام "الحق" بسبب هذا الخلل، وليس بسبب ذاتي في الحق نفسه.

وأي وسيلة حق في "باطل" يمكن أن تؤدي بالمقابل إلى انتصار الباطل انتصارا بسبب هذا الجزء البسيط من الحق الذي يملكه وليس بسبب ذاتي في الباطل نفسه".

يستطرد النورسي في مزيد من الإيضاح فيقول بناء على ما تقدم:

"وعليه يكون: حقٌ مغلوب لباطل، مغلوبٌ بوسيلته الباطلة، أي مغلوبٌ موقتاً، وإلا فليس مغلوباً بذاته، وليس دائماً، لأن عاقبة الأمور تصير للحق دوماً.

أما القوة، فلها من الحق نصيبٌ، وفيها سرٌّ للتفوق كامنٌ في خلقتها.

النقطة الثانية:

بينما يجب أن تكون كلُّ صفة من صفات المسلم مسلمةً مثله، إلاّ أن هذا ليس أمراً واقعاً، ولا دائماً!

ومثله، لا يلزم أيضاً أن تكون صفات الكافر جميعها كافرةً ولا نابعةً من كفره.

وكذا الأمر في صفات الفاسق، لا يشترط أن تكون جميعُها فاسقة، ولا ناشئة من فسقه.

إذن، صفةٌ مسلمةٌ يتصف بها كافرٌ تتغلب على صفة غير مشروعة لدى المسلم. وبهذه الوساطة (والوسيلة الحقة) يكون ذلك الكافر غالباً على ذلك المسلم (الذي يحمل صفة غير مشروعة).

ثم إن حقّ الحياة في الدنيا شامل وعام للجميع. والكفر ليس مانعاً لحق الحياة الذي هو تجلٍ للرحمة العامة والذي ينطوي على "سر الحكمة" في الخلق.

النقطة الثالثة:

لله سبحانه وتعالى تجليان -يتجلى بهما على المخلوقات- وهما تجليان شرعيان صادران من صفتين من صفات كماله جل وعلا.

أولهما:

الشرع التكويني -أو السنة الكونية- الذي هو المشيئة والتقدير الإلهي الصادر من صفة "الإرادة الإلهية".

والثاني:

الشريعة المعروفة الصادرة من صفة "الكلام الرباني". اي الوحي الإلهي.

فكما أن هناك طاعةً وعصياناً تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعةٌ وعصيانٌ تجاه الأوامر التكوينية.

وغالباً ما يرى الأول -مطيع الشريعة والعاصي لها- جزاءه وثوابه في الدار الآخرة. والثاني -مطيع السنن الكونية والحياتية والعاصي لها- غالباً ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا.

فكما أن ثواب الصبر النصرُ.
وجزاء البطالة والتقاعس الذلُّ والتسفّل.
كذلك ثواب السعي الغنى،
وثواب الثبات التغلب.
مثلما أن نتيجة السمِّ المرضُ.
وعاقبةَ الترياق والدواء الشفاء والعافية.
وتجتمع أحياناً أوامر الشريعتين معاً في شئ.. فلكلٍ جهة.
فطاعةُ الأمر التكويني الذي هو حق، هذه الطاعة غالبة -لأنها طاعة لأمر إلهي- على عصيان هذا الأمر بالمقابل، لأن العصيان -لأي أمر تكويني- يندرج في الباطل ويصبح جزءاً منه.
فإذا ما اصبح حقٌ وسيلةً لباطلٍ فسينتصر على باطلٍ اصبح وسيلةً لحق، وتظهر النتيجة:
حــقٌ مغلوب أمام باطل! ولكن ليس مغلوباً بذاته، وإنما بوسيلته. إذن فــ"الحق يعلو" يعلو بالذات، والعقبى هي المرادة -فليس العلو قاصراً في الدنيا- إلاّ أن التقيّد والأخذ بحيثيات الحق مقصود ولابد منه.

النقطة الرابعة:

إنْ ظلَّ حقٌ كامناً في طور القوة -أي لم يخرج إلى طور الفعل المشاهَد- أو كان مشوباً بشيء آخر، أو مغشوشاً، وتطلّب الأمر كــشف الحــق وتزويده بقوة جديدة، وجعله خالصاً زكياً، يُسلّط عليه مؤقتاً باطلٌ حتى يخلُص الحق -نتيجة التدافع- من كل درن فيكون طيباً.
ولتظهر مدى قيمة سبيكة الحق الثمينة جداً.

فإذا ما انتصر الباطل في الدنيا -في مكان وزمان معينين- فقد كسب معركة و لم يكسب الحرب كلها، لأن "العاقبة للمتقين" هي المآل الذي يؤول إليه الحق.

وهكذا الباطل مغلوب -حتى في غلبه الظاهر- وفي "الحق يعلو" سرٌّ كامن عميق يدفع الباطل قهراً إلى العقاب في عقبى الدنيا أو الآخرة، فهو يتطلع إلى العقبى. وهكذا الحق غالب مهما ظهر انه مغلوب!".[1]

obeikandl.com

(١) الكلمات (اللوامع) ص ٨٧١-٨٧٣.